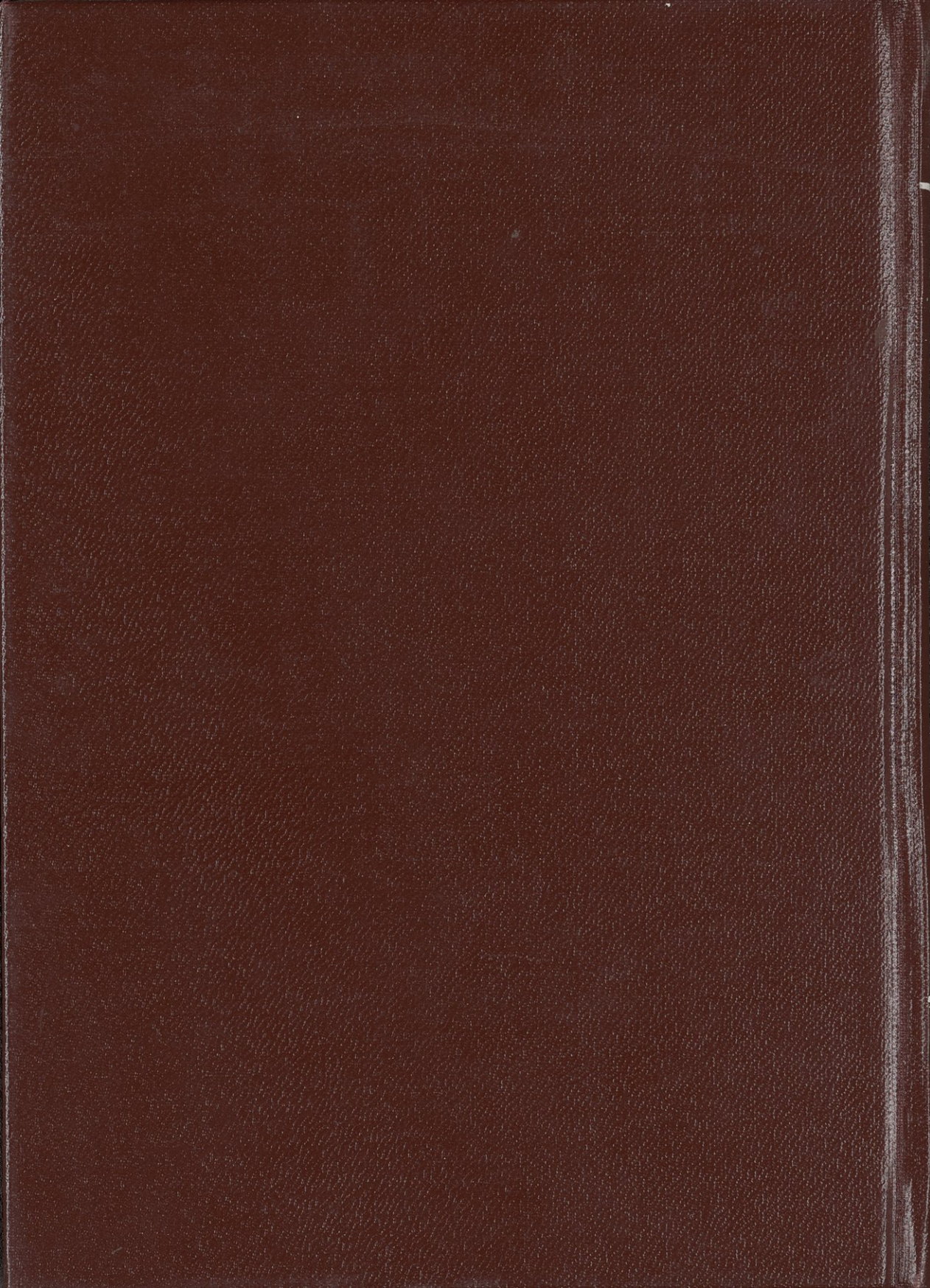






تسدد الربح چهار مائة
تواریخ فی اسد صدقه والحقول

N. MAKHOUL

BINDERY

22 JUL 1972

Tel. 260458

اتجاهات الأدب الإنجليزي
في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

الاهراء

إلى زوجتي التي هيأت لي جوًّا مناسباً للعمل

صحيل سعيد

مقدمة الكتاب

الأدب مهما كان نوعه ، هو مجموعة أفكار الناس وعواطفهم وآمالهم ، هو تاريخ النفس البشرية في جميع نواحيها ، هو ملك لجميع الناس على السواء ، يغض النظر عما يختلفون فيه من نواح أخرى . هو التعبير عن الحياة بكل معانيها ، وغرضه إدخال السرور إلى القلب ومساعدة الإنسان على فهم نفسه وحقيقتها .

والأدب غزير في مادته ، واسع في معانيه . فهما قرأت منه لا تستطيع أن تقرأ سوى القليل ، ومهما درست من أبوابه تجد في النهاية أنك لم تدرس سوى جزء ضئيل . ومهما كانت اللغة التي تقرأ الأدب فيها ، يبقى الأدب ذلك الباب الذي تدخل منه إلى حقائق الحياة الجميلة ، وتلك الرسالة التي تهديك إلى ما في الحياة من حق وجمال .

وغرضي في هذا الكتاب أن أقدم للقارئ الكريم صورة عن عصرين من عصور الأدب الإنجليزي ؛ وقد اخترت هذين العصرين لأن أدبهما زاخر مليء بالحياة . وفيهما ظهرت حركات فكرية كان لها تأثير في تكوين الأدب وتوجيهه . وسأحاول بقدر المستطاع أن أشرح الأسس والمبادئ التي يرتكز إليها الأدب في هذين العصرين ، وقد

اخترت عدداً من الكتاب والشعراء الذين كان لهم الفضل في توجيه
الأدب وانتقاله من طور إلى طور ، وحاولت أن أبين الصفات البارزة
في أدبهم وحياتهم .

أما ونحن على أبواب نهضة جديدة على ما أعتقد ، فلا بد لنا من
الاطلاع على أهم نواحي الأدب الغربي ، فالثقافة الإنجليزية قد تغلغت
في مدارسنا وصحفنا وبيوتنا ، ودرسنا للنواحي الهامة في الأدب الإنجليزي
مما يساعد النشء في المستقبل على تكوين أدب قومي جديد .

الباب الاول

الأدب الإنجليزي في القرن الثامن عشر

١ - نظرة عامة

كما أن للأدب تأثيراً في حياة الناس في كل طور من أطوار حياتهم فإن لحوادث العصر وظروفه أثراً ظاهراً في تكوين الأدب من شعر ونثر .

يمتاز القرن الثامن عشر في إنجلترا بظهور حركات فكرية جديدة ومحاولات كثيرة للإصلاح ، فقد كان الإنجليز إلى سنة ١٦٨٨ يجاهدون في سبيل حريتهم ، وقد تم لهم كثير مما يريدون من النظم والديساتير ، وأصبحوا يتمتعون بنوع من الحرية التي من شأنها أن تسير بالشعب إلى الأمام إن هو أراد . ومنذ ذلك الحين بدأ عمل الكتاب والأدباء والمصلحين ؛ إذ بالرغم مما كان عليه عصر الملكة أليصابات في القرن السادس عشر من الرقي والازدهار ، إلا أنه كان بالنسبة لأدب العصور التالية قليلاً محصوراً . وكان لا بد من هذا التطور لأن اتساع أرجاء المملكة في القرن السادس عشر وما بعده ، وتبدل طرق المعيشة وانتشار التعليم أدى إلى ظهور نهضة أدبية ونوع من التفكير جديد .

الكتاب والأدباء جهودهم للإصلاح في شتى النواحي ، وحاولوا تحسين الحكومة وإدارة البلاد ، وأصبح الشعب هو الذى يقيم الحكومات وهو الذى يقيلمها ، وكان لا بد من إدارة لتثقيف الشعب وتدريبه على حسن الانتخاب والحكم الذاتى . فكان أول ثمرة للحركة التثقيفية الصحيفة والكتاب ، ولأول مرة منذ القرون الوسطى تعلم الناس بواسطة الصحيفة والكتاب أن يلجأوا إلى الكلام الهادىء المتزن فى حل المشاكل بدلا من اللجوء إلى العنف والقتال . ورغم الاختلافات العديدة التى كانت بين الفرق والأحزاب أصبح فى مقدور الناس أن يقرءوا فى الصحف آراء تخالف آراءهم ، ويستمعوا لمبادئ تخالف مبادئهم بدون ثورة أو غضب . وفى هذا العصر كثر الاختلاط بين الناس ، فى النوادى والمقاهى والمحلات العامة على أنواعها . ففى لندن وحدها كان يوجد ما لا يقل عن ألفى مقهى يجتمع فيها الناس من مختلف الطبقات ، وكان لهذه الحياة الاجتماعية أثر بالغ فى الصحافة والأدب .

وكان من نتيجة هذا التيقظ أن الناس بدءوا يظهرن استياءهم مما كانوا يشاهدونه من نقص فى حياتهم العامة . وطغت موجة تدمير بين الكتاب والمفكرين من مظاهر البؤس والشقاء . فقد كانت شوارع لندن وهى أهم مدينة فى البلاد قدرة مظلمة ملآى باللصوص والمتشردين ، وكان الناس يفرطون فى الاهتمام بالمظاهر الخارجية والنواحي السطحية

في الحياة ، فكانوا يتألقون في المأكل والملبس ، ويتكفون في الكتابة والحديث ، والحكومة كانت لا تزال منقسمة إلى حزينين : الوزر والطوري ، وهما في نزاع دائم ؛ كما أنه كانت لا تزال هناك بقية من التعصب الديني الذي أريقت بسببه دماء كثيرة . على أننا نلاحظ تغييراً محسوساً في هذا القرن من ناحية التسامح والتساهل في الدين والسياسة ، وعلى كل حال ، إن لم تكن القلوب قد تغيرت بالكلية فلا شك أن السلام كان يسود حياة الناس الخارجة في ذلك العصر . وبدلاً من اللجوء إلى السلاح لجأ المفكرون إلى البحث والجدل . ومن أهم مزايا الأدب في ذلك العصر التهمك والهجاء ، فإذا أراد أحدهم مهاجمة خصمه لجأ إلى وضع قطعة أدبية تهكمية فيها غمز ظاهر ، فكانت هذه الطريقة تلتف من حدة الجدل وتثير في نفوس القراء المرح والسرور في كثير من الأحيان . وقليلون هم الكتاب الذين شذوا عن هذه الطريقة المعتدلة في دفاعهم عن المذهب الذي ينتمون إليه .

ومما ساعد على تلطيف الجو حب الناس لبلادهم وسعيهم ليكونوا كتلة واحدة مهما اختلفت آراؤهم ومذاهبهم لحفظ كيانه وحريتهم . فهذا الاعتزاز بالقومية ساعد الناس على نسيان الماضي بجميع مساوئه . وقد كان لانتصارات انجلترا في الخارج أكبر مشجع على الوحدة والتضامن . وإنا لنجد الشعراء والكتاب في هذا العصر يضرَبون على وتر الوطنية والاعتزاز بالقومية في كثير من المناسبات ، ويكثرُون من

وصف المعارك والحروب التي انتصرت فيها إنجلترا . ففي قصيدة مشهورة للأديب جوزيف أديسون عن معركة بلنهايم يذكر الشاعر أهل بلاده أنهم مهما اختلفت عقائدهم فإنما هم إنجليز قبل كل شيء .

قلنا إن الصحافة كانت من أهم مظاهر النقد والازدهار في القرن الثامن عشر فقد كان الأديب والصحافي رفيقين متلازمين . بل كثيرا ما كان الأديب هو الصحافي ، والصحافي هو الأديب ، وهذا غير ما هو الحال عليه اليوم . فقد يكون المرء صحافياً ممتازاً وهو لا يستطيع أن يؤلف رواية أو ينظم قصيدة وليس له اطلاع واسع في الأدب ومصادره المتعددة . وكذلك الأديب فقد لا يحسن الكتابة الصحفية أو قد لا يناسب أسلوبه ونوع تفكيره ميدان الصحافة ؛ وسبب ذلك هو أن الأديب والصحافي على السواء في إنجلترا اليوم يمكن الواحد منهما أن يعيش من الأدب وحده أو من الصحافة وحدها . أما في السابق فلم يكن ذلك ممكناً ، وبقى أكثر الكتاب في ضيق مالى وعوز شديد ، ومن هؤلاء صموئيل جونسون ذلك الأديب القدير والصحافي الكبير ، فقد كان أدبه كله وصحيفته اليومية لا يكسبانه قوت يومه ، زد على ذلك أن الأدب نفسه لم يكن قد وصل إلى درجة فائقة في الرقي ، فالقصة كانت لا تزال في بدء نشوئها ، والشعر كان لا يزال ضئيلاً ، وعدد القراء الذين كانوا يميلون إلى القراءة والشعر وكتب الأدب قليل بالنسبة إلى المجموع .

هذه العوامل كلها افسحت المجال للصحافة وساعدت على تقدمها المتواصل السريع .

ولنلق نظرة على تطور الصحافة لما كان لها من التأثير في حياة الناس في القرن الثامن عشر؛ ولا بد من أن نعود القهقري فننتبع تطور الصحافة منذ أن كانت عديمة الفائدة قليلة الأهمية .

منذ سنة ١٦٨٨ أى بعد تلك التطورات التي أدت إلى زوال استبداد الملوك والحكام، وإلى قيام دساتير من شأنها حفظ حقوق السكان أصبح للصحافة مكانة سامية ، ومنحت قسطاً وافراً من الحرية ، وفي القرن الثامن عشر خطت الصحافة خطوات واسعة وبدأت تخرج من الظلمات إلى النور .

كانت الصحافة في القرنين السادس عشر والسابع عشر في منتهى التأخر ، ففي زمن الملكة اليصابات كانت مجرد نشرات ورسائل إخبارية تتناول الحياة ، وكانت تسمى رسائل الأخبار ، واستمرت هذه الرسائل الإخبارية إلى أوائل القرن السابع عشر . ففي سنة ١٦٢٥ أصدرت أول صحيفة منظمة ذات اسم خاص ، وكان ذلك في زمن جيمس الأول ، وغرضها الرئيسي أن تقدم للجمهور أخبار حرب الثلاثين سنة في أوروبا .

وكان للحرب الأهلية في القرن السابع عشرى أفى زمن شارل الأول أثر في تقدم الصحافة من ناحية سياسية . فقد كان لكل حزب صحيفة

تصدر كى تعبر عن آرائه ومبادئه . وكانت هذه الصحف قليلة الصفحات صغيرة الحجم . ويخبرنا اللورد ماكولى فى القرن التاسع عشر عن هذه الصحف أنها لو جمعت جميعاً لما تجاوز حجمها عدد من صحيفة التيمس . فقد كانت محتويات « اللندون جازيت » مثلاً بعض نشرات الملك وخطاباً أو ثلاثة لبعض أعضاء حزب الطورى ، ثم متفرقات من الأخبار والترقيات فى المناصب ، ووصفاً لقطاع الطرق وأخباراً تافهة من هنا وهناك . وهذه الأخبار كلها كانت تملأ صفحتين من النوع المتوسط الحجم . أما أسماء هذه الصحف فكانت غريبة مضحكة ، وكان الاسم يعبر عن غرض الصحيفة وغايتها . ويدل على تلك النزعة التهكمية التى طغت على نفوس الكتاب والصحفيين فى ذلك الوقت . ونذكر هنا بعض أسماء هذه الصحف على سبيل المثال « الطائرات البرلمانية » ، « اليوم السرى » ، « الميكشف الأسبوعى » ونشأت جرائد معادية لهذه بأسماء مختلفة .

وفى سنة ١٦٢٩ عطل الملك شارل الأول البرلمان ، ورأى أن يعطل الصحف التى تتحدث عن ذلك ، وبقيت الصحف معطلة إلى سنة ١٦٣٨ وأخيراً سمح لجريدين فقط بالصدور وقيدهما إلى أبعد حد ممكن . ولما عاد البرلمان إلى الانعقاد منح الصحف قسطاً من الحرية فظهر نوع من الصحف على شكل الكتيب ، وكانت تسمى « الكتب الجديدة » وكل كتيب منها يتألف من أربع أو ست صفحات مستطيلة . ومن

أشهر الصحفيين في ذلك الحين صموئيل بيك وهو أول من سمح له بنشر محاضر جلسات مجلس النواب ، وكانت جريدته ذات ثمانى صفحات ورغم صعوبة المواصلات كان قراؤها خارج لندن كثيرين ، ولكن لم يكبد الصحفيون يتذوقون طعم الحرية حتى خشى البرلمان منهم هذه المرة وفرض عليهم رقابة شديدة فثارت ثأرتهم وانتهزوا فرصة النزاع القائم بين الملك والبرلمان وأطلقوا لأنفسهم العنان في النقد والمناوأة . وفي زمن شارل الثانى نشطت بعض الصحف الموالية للملك فشجعها ، ومن ثم نشأت الأحزاب والصحف الحزبية . وقد كان للصحف في ذلك الوقت أشد الأثر في نشوء الأحزاب السياسية وتطورها . وظلت الصحافة تضعف وتقوى إلى أن جاءت سنة ١٦٩٥ ، تلك السنة التى تعد من أهم أيام تاريخ الصحافة في إنجلترا ، لأن فيها ألغيت الرقابة وأصبحت الصحف تتمتع بقسط وافر من الحرية .

وما كادت الصحافة تتحرر من القيود حتى خطت خطوات واسعة إلى الأمام ، وكيف لا يكون الأمر كذلك وإنجلترا كلها — كما ذكرنا سابقاً — كانت قد اجتازت دوراً من أهم أدوار حياتها . فقد انتهى النزاع بين الملوك والشعب في مصلحة الشعب ذاته .

ومنذ بدء القرن الثامن عشر إلى الآن ظلت حقوق الشعب الدستورية محفوظة . وبقي في البلاد الحزبان الكبيران « الوجود » و « الطورى » . لذلك كان عمل الصحف السياسية في القرن الثامن

عشر التعبير عن النضال القائم بين هذين الحزبين .

وفي مقدمة الصحفيين في هذا العصر « دانيال ديفو » الذى كان يناصر حزب الوجود ، إلا أنه كان مصنفاً بين الحزبين ويقول الحق مؤثراً صالح الجمهور على مناصرة الأحزاب ، لذلك أحبه الناس ووثقوا به ، فاتسع أمامه المجال لإظهار مواهبه ، وكانت مقالاته السياسية الطويلة تقرأ فى المقاهى وعلى قارعة الطريق بصوت عال .

وفي سنة ١٧١٢ فرضت ضريبة الطوابع على الصحف ، وسبب فرض هذه الضريبة هو أن عدد الصحفيين قد كثر ، فلبجاً بعضهم إلى إصدار صحف صغيرة الأحجام قليلة النفقات تباع النسخة ببنس واحد . فكثرت قراءتها إلى حد جعل الحكومة تخشى العاقبة . فكان فرض الضريبة محاولة منها لوقف الصحف عند حدها ، ولكن هذا العمل لم يحل دون انتشارها ، واستمر عدد القراء يتكاثر ونشاط الصحفيين ينمو ويزيد .

إلى جانب الصحف السياسية قامت فى القرن الثامن عشر نهضة صحفية أدبية تزعمها أديبان كبيران هما ريتشارد ستيل ؛ وجوزيف أديسون ، ولما لم يستطيعا إظهار مواهبهما وتحصيل معيشتهم بتأليف الكتب لجأ إلى إنشاء صحيفة سميها « تاتلر » . عام ١٧٠٩ ، ثم أتبعها بعد سنتين بصحيفة يومية أخرى سميها « سبكتاتور » واشترك معهما فى تحريرها عدة رجال ذوى مواهب وأميال مختلفة . ويعتبر النقاد هذه

الصحيفة أساساً للصحافة في إنجلترا ، ومع أن موضوعاتها أصبحت اليوم
 قديمة ، إلا أنها لا تزال تقرأ لأسلوبها الشائق وبراعة كتابها في النقد
 والتهكم . و انتهالها من كل نبع قطرة . كان يكتبها أصحابها عادة
 في المقاهى والنوادي حيث كانوا يجتمعون ، وكان بين هذه الزمرة من
 الأدباء ألفة وعشرة ، يجلسون للحديث والمناقشة ساعات طويلاً ، فكانت
 مقالاتهم وليدة حياتهم اليومية . حياة الفقر والتشرد — في كثير من
 الأحيان — ولكنها حياة ملاءى بالنشاط الفكرى والإنتاج الأدبى
 والصحفى . وأكبر دليل على تقدم الصحافة فى هذا العصر هو أن
 الصحف لم تبدأ بنشر المناقشات البرلمانية إلا بعد نزاع مع البرلمان
 عنيف . وكان زعيم هذا النزاع وليم وود فول ؛ ولم يكن قبل ذلك
 يسمح إلا بنشر خلاصة موجزة جداً لأعمال البرلمان مع شىء قليل من
 التعليق عليها ، ولكن زعيم هذه الحركة لم يكتف بذلك بل طالب
 بأن يستمع لجميع مناقشات البرلمان ، ثم كان يعود من ساعته ويكتبها
 معتمداً على ذاكرته وينشرها للجمهور كلمة كلمة بقدر المستطاع ، وقد
 كان قوى الذاكرة فنجح فى عمله هذا إلى حد بعيد ، وأصبح ينشر نحو
 ستة عشر عموداً ، ولكنه لم يستطع أن يثابر على هذا العمل المضنى
 أكثر من بضع سنوات ، وأخيراً اضطر إلى توزيع العمل بين عدة
 أشخاص ؛ ونشأت طريقة الاختزال فى الكتابة ، وأصبح من الممكن
 الإسراع فى النشر والدقة فى نقل الحوادث والأخبار . وقد ساعد هذا

العمل على إفهام الجمهور حقوقه وواجباته ومكنه من محاسبة البرلمان محاسبة دقيقة . وكان من أثر ذلك أن أصبح ولاية الأمور شديدي الحذر في قراراتهم مقدرين عاقبة أخطائهم .

ومما هو جدير بالذكر أن جريدة التيمس ظهرت لأول مرة سنة ١٧٨٨ وكانت في أول عهدا صغيرة الحجم بالنسبة لما هي عليه اليوم ؛ ولم تكبر وتتسع إلا بعد استعمال قوة البخار سنة ١٨١٤ ، وهكذا قل عن عدد كبير من الصحف والمجلات الكبرى في إنجلترا اليوم .

هذه لمحة خاطفة عن تقدم الصحافة الإنجليزية السياسية والأدبية في فترة من الزمن لا تزيد على مائة وخمسين سنة . لقد كان هذا التقدم سريعا ومتواصلا . نشأت الصحافة في المقاهي والمجتمعات العامة وفي ظروف سياسية واقتصادية قاسية ، وفي وقت كان يتعذر فيه الإسراع في العمل لعدم وجود الآلات اللازمة ولصعوبة وسائل النقل ، ومع ذلك فقد كانت إنجلترا أسبق الدول الأوربية في هذا المضمار ، ففي فرنسا مثلا لم تتقدم الصحافة في تلك الفترة خطوة واحدة بل ظلت راكدة إلى ما بعد الثورة الفرنسية . وبينما كان « ملتن » الشاعر الكبير يصرخ في وجه البرلمان الإنجليزي عام ١٦٤٤ مدافعا عن حرية القلم وقائلا : « قتل إنسان هو إبادة مخلوق عاقل ، أما طمس كتاب قيم ، فإبادة للعقل ذاته » بقيت فرنسا تنتظر إلى سنة ١٧٥٥ ذلك الرجل الجريء جان جاك

روسو كى تقول « ما هذه الجرائد اليومية ؟ . إنها ذلك المجهود اليومى الذى لا فائدة من ورائه ، وهو لذلك يلقى من رجال الأدب ازدراء أكيداً ، وليست لهذه الصحف مهمة أسمى من أن تمد الجهلاء والنساء بالأباطيل والأكاذيب ، وهى لذلك تلمح فى الصباح فوق أدوات الزينة وفى الليل تعود داخل خزائن الملابس » .

إن تقدم الصحافة الإنجليزية هكذا أدى إلى نشوء أدب رفيع فى أواسط القرن الثامن عشر ونما هذا الأدب وتكامل فى القرن التاسع عشر كما سنبين فيما بعد .

٢ - مزايا النثر

إننا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن أدب القرن الثامن عشر هو أدب نثرى لا أدب شعري ، ولسنا نقصد بهذا أن الشعر الذي كتب فيه لا يستحق العناية والدرس ، وإنما نقصد بأن أدباء القرن الثامن عشر كانوا أشد ميلاً إلى التعبير عن أفكارهم بالنثر لا بالشعر؛ وهذا يظهر جلياً في مقدار ونوع ما أنتجوه من النثر بالنسبة إلى الشعر . وقد رأينا فيما تقدم أن الأحوال والظروف في هذا العصر كانت تستدعي الشرح والتفصيل والمناقشة والجدل؛ والشعر لا يتسع صدره لهذه الأغراض نظراً لقيود الوزن والقافية ، وضرورة الاكتفاء بالتلميح دون التصريح ولغلبة العاطفة والخيال فيه على موازين المنطق والعقل . والقرن الثامن عشر يشبه القرن العشرين من هذه الناحية من حيث حاجته إلى النثر أكثر من الشعر ، فعصرنا عصر علم وتحليل وتحقيق وتدقيق ، وقد حاول كتاب القرن الثامن عشر في إنجلترا أن يعبروا عن معتقداتهم وآرائهم ، وأن يعالجوا المشاكل الاجتماعية والسياسية بنوع من النثر الفني الذي قل أن تجد مثله في تاريخ الأدب الإنجليزي في جميع العصور . ومن أغرب ما حصل للشعر في هذه الآونة أنه أصبح يقلد النثر في اتجاهه ، فيتناول الموضوعات التي يتناولها النثر ويحاول أن يشرح

ويفصل وينتقد ويناقش ، وبدلاً من الجنوح إلى الخيال أو الابتعاد عن الناحية العملية في الحياة أصبح الشعر واقعياً عملياً في أسلوبه وموضوعه إلى أقصى حد ، فأصبح غاية في التكلف والتصنع ، وكثير منه لا يعدو أن يكون مقالات عليها مسحة القافية والوزن وغرضها الهجاء أو النقد أو إبداء الرأي في ناحية من نواحي الحياة ، دون أن يكثر الشعراء بما قد يكون لقصائدهم من أثر في نفوس القراء ، وقد نقرأ مقالة لأديسون في موضوع ما مثلاً فتطرب نفوسنا وتستيقظ مشاعرنا ويتنبه خيالنا ، بينما نحن لا نحس بشيء سوى الملل إذا قرأنا قصيدة في الموضوع نفسه لشاعر من شعراء العصر ، ولا سيما في أوائله ، وسنبين ذلك في القسم الذي خصصناه للشعر .

ومن مميزات النثر في هذا العصر أنه أصبح متعدد المرامي كثير الأساليب يحاول أن يعبر عن كل فكرة أو خلق أو عاطفة بشرية . وهذا التنوع أدى إلى السيطرة على تفكير الجمهور وتنظيم حياته فيما بعد على أساس جديد ، وكان حسن السبك والتنميق الذي ورثه هذا الجيل عن الجيل السابق لا يزال يسيطر على أساليب الكتابة ، إلا أن تعدد نواحي الأدب وتغلغله في حياة الناس جعل منه أدباً أقل تكلفاً وتصنعاً . وكان لزاماً على الأدب أن يعالج مشاكل السياسة بسبب الأزمة السياسية التي كانت تعانيها البلاد . ولم يستطع كاتب واحد أن يتجرد بالكلية عن مناصرة حزب ضد حزب آخر . وقد كان كل

حزب يكافئ كتابه إذا هم نطقوا بلسانه ودافعوا عن مبادئه . وكان الكتاب يقبلون على هذا العمل نظراً لفقرهم وحاجتهم إلى المال . فتاريخ أدب هذا العصر إنما هو تاريخ الأحزاب السياسية ، أو بالأحرى ذينك الحزبين الكبيرين : « الوزر » و « الطورى » . وقد لجأ الكتاب إلى طريقة النقد والتهكم فى دفاعهم الحزبى ، وكان هذا النقد فى أكثر نواحيه وسيلة لإظهار مساوى الآخرين بتعريضهم للهزؤ والسخرية ؛ وشتان بينه وبين نقد القرن التاسع عشر الذى أصبح الناقد فيه يعدد الحسنات أولاً قبل أن يتعرض للسيئات ، وكف عن الطعن فى كرامة الأشخاص أو الجماعات . ومن المؤسف حقاً أن يكون هؤلاء الرجال ذوو المواهب العالية قد أضاعوا جهودهم فى هذا النوع من النقد والمهاجمة للآخرين .

ومن مزايا النثر فى هذا العصر محاولة ضبط العاطفة وعدم إظهار التحامل فى الكتابة إلا من ناحية النقد ، ثم اللجوء إلى الدقة فى التعبير والاهتمام بانتقاء الألفاظ للتعبير عما يريدون ، وهذه النزعة العقلية الحالية من العاطفة التى تعرف بالطريقة الكلاسيكية كانت أحد الأسباب التى جعلت كتاب القرن التاسع عشر ينفرون من القيود ، ويسترسلون فى أساليبهم الجرة إلى أقصى حد . ولقد تعبوا من موازين الشعر القديمة التى لا تنوع فيها وأقبلوا ببتكرون أوزاناً جديدة لشعرهم ، وقوالب جديدة لنثرهم ، وكان أن نشأت الطريقة المعروفة بالرومانتيكية التى سنتحدث

عنها فيما بعد . والطريقة الكلاسيكية تشبه طريقة كتاب الرومان القدماء أمثال هوراس وفرجيل وشيشرون في عصر أغسطس ، ولذلك سمي القرن الثامن عشر من ناحية الأدب بعصر أغسطس ، وبعضهم يسميه عصر الملكة « حنة » .

ولم تكن الخصومات بين الأحزاب مقتصرة على السياسة في مطلع العصر ، بل كانت المجادلات الدينية تشغل عقول الناس إلى حد بعيد وكان غرض الكتاب أن يلقوا نوراً جديداً على المعتقدات الدينية القديمة . وكان من نتيجة هذه المجادلات أن أصبحت عقول الناس قلقة متزعزعة من هذه الناحية ، وبدأ الناس يشكون في معتقدات آبائهم مما مهد الطريق للنزعة العلمية في القرن التاسع عشر .

وفي سبيل هذا النزاع الفكري قاسى الكتاب والأدباء آلاماً شديدة وقليلون هم الذين ساعدهم الحظ أن يتجنبوا الفقر والعوز ، وكان على من أراد أن يضمن معيشته أن يتخذ له عملاً آخر بالإضافة إلى الكتابة فمثلاً « ريتشارد سون » كان يملك مطبعة كبيرة تعود عليه بربح طائل ، وبعضهم كان يعيش على القليل الذى يتقاضاه كمعاش من أصحاب النفوذ في الدولة . مثل الكاتب طومسون الذى أنعم عليه ولى العهد بمائة جنيه سنوياً ، وأخيراً حصل على وظيفة غير ثابتة بمعاش ثلثائة جنيه سنوياً ؛ أما الأكثرية فكانوا يعيشون حياة تعسة بائسة ، وكانوا يتجمعون في شارع واحد ، وهو الذى أصبح اسمه يوحى إلى الناس الفقر والمسكنة

وكان عمل هؤلاء الكتاب شاقاً ، وكانت تضطرهم الحاجة إلى العمل ساعات طويلاً مقابل أجر زهيد . وكان أصحاب المطابع والمكاتب مستغلين لهؤلاء المساكين إلى أبعد حد . وعلى أكتافهم كانوا يرتفعون وينجحون . ولا تزال بعض آثار هؤلاء الكتاب المجاهدين باقية إلى اليوم ، فقد نقحوا الكتب القديمة ، وترجموا عدداً كبيراً منها من لغات مختلفة ، وإذا ما كانت تقبل مقالة أو قصيدة لأحدهم لتنتشر في إحدى الجرائد الحليمية مقابل بضع شلنات كان يدعو أصحابه ليشاركونه فرحه فينفق جزءاً كبيراً مما كسبه في ذلك النهار ، ويعيش على الطوى في اليوم التالي وما بعده . وما زاد في ألم هؤلاء الأشخاص هو اعتقادهم الذي كانت تبرره نتائج مجهوداتهم أنهم خلقوا ليقوموا بأعمال أسمى ، وأن يعاملوا معاملة أعدل . ويعطينا « ما كولى » في إحدى مقالاته وصفاً رائعاً لحالة هؤلاء الكتاب ومما يقوله عنهم « إن حالتهم كانت تستدعى الشفقة ، حتى إن الفقراء كانوا يعطفون عليهم » ، ويميز بين شعورهم وشعور الفقراء بالبؤس فيقول « إن الفقراء البسطاء يتقبلون حالتهم بدون شكوى أو مرارة في النفس لأنهم اعتادوها ، ولا يصبون إلى هدف أبعد من أن تمتلئ معدتهم ، أما هؤلاء الكتاب المساكين فكانوا يصبون إلى درجة أرفع ، ويدركون أنه من الحيف أن تكون حالتهم على ما هي عليه » . ويصف كم كانوا يلاقون من الإهانات من رجال الأمن ، فقد كانوا يطاردونهم كما يطاردون اللصوص الأشرقياء وكانت حالتهم تقودهم إلى الحانات وحلقات القمار في كثير من الأحيان

وكانوا ينفقون القليل الذى يحصلونه فى هذا السبيل ويعودون إلى التشرّد والتسكع ، وكانوا يتذوقون اللذة والشبع على دفعات وفى فترات متقطعة ، وهذا ما جعلهم دائماً متبرمين ناقلين . . .

وقد اضطرتهم هذه الحياة القاسية إلى النفاق والمداهنة لذوى الشأن ، وكثيراً ما كان يرى كاتب 'موهوب' واقفاً كالعبد الذليل ينتظر عربة رجل من ذوى اليسار كي يحسن إليه ، أو يقبل بأن يشترك فى كتاب أو ديوان يريد الكاتب نشره . وقد يطرد من أمام ذلك السيد ، وقد يضطر ذلك الكاتب أن يرشو البواب أو الوكيل كي يسهل له الوصول إلى ذلك السيد . وسواء أكان الكاتب معروفاً أم غير معروف فإن التقرب من السادة العظماء كان أمراً لا بد منه . ولم ينل كتاب شيئاً من الرواج إلا بعد أن يكون قد قدّمه صاحبه إلى شخصية معروفة مصحوباً بكل ما تسمح به اللغة من ألفاظ المداهنة . والمكافأة للكاتب من ذلك العظيم كانت تتوقف على كثرة ما فى التقديم من مديح ومبالغات ، أو على مقدار ما يكون قد أصاب ذلك السيد من الحظ فى ليلة سابقة على مائدة القمار ، وإذا لم يكن الكتاب قد استوفى هذه الشروط ، أى أن تكون الشخصية التى تزيهه معروفة ، فإن الناشرين كانوا يرفضون نشره ، لأنهم لا يتوقعون له رواجاً . والناشرون معذورون لأن عدد القراء كان بالنسبة قليلاً ، وبيع الكتب للناس كان من أصعب الأمور . وقد أخبرنا المؤرخون أن الناس كانوا يضمنون بالمال

في هذا السبيل ، وكثيراً ما كان بعض محبي القراءة يتجمعون في
حوانيت الكتب فيقرءون ما يستطيعون من الكتب لقاء اشتراك
بسيط يدفعونه لصاحب الحانوت . ومن هذه العادة نشأت مكاتب
الإعارة ونوادي القراءة المنتشرة في كل مكان .

من هذه الحياة التعسة البائسة التي عاشها الأدباء في القرن الثامن عشر
نشأ نوع من الأدب كان هو الوسيلة لتلك اليقظة الفكرية الهائلة في
القرن التاسع عشر ، ورغم جميع الآلام والصعوبات استطاع عدد ليس
بقليل من الكتاب مثل صمويل جونسون ، وجوناثان سافت أن
يشقوا طريقهم نحو النجاح والشهرة ، وقدموا للعالم آثاراً لا تزال تعد
من أثمن ما أنتجه القرن الثامن عشر في إنجلترا .

٣ - جوزيف أديسون وستيل

١٦٧٢ - ١٧٤٩ * ١٦٧١ - ١٧٢٩

من زعماء الأدب في أوائل هذا العصر جوزف أديسون ، وقد مر ذكره سابقاً في الحديث عن الصحافة . كان هذا الرجل شخصية محبوبة متفائلة ، ورغم أنه كان ناقماً على النظم والمعتقدات السائدة في عصره إلا أنه كان هادئاً في نقده ، حريصاً كل الحرص أن لا يسئ إلى خصومه ، وقد اتبع طريقة التهمك والذع التي كانت من مزايا العصر ، ومع ذلك كان لطيفاً خفيف الروح ، حتى إن الناس كانت تعتبر نقده نوعاً من التفكهة . وقد أثر أديسون في ناحيتين هامتين - الأولى أنه رفع من شأن الأدب ووجهه نحو الفضيلة بعد أن كاد يتدهور في القرن السابع عشر نحو الدعاية للرذيلة . والثانية أنه باشتراكه مع صديقه « ستيل » وجه جهوده نحو إصلاح الحياة الاجتماعية المتأخرة في ذلك العصر ، وحاول في مقالاته أن يعرض صوراً من البشر وسلوكهم ويصوب عليها أشعة النقد النافع النزيه . وقد حرر جريدتين الأولى تدعى « تكلر » والثانية « سبكتاتور » لخدمة أغراضه الأدبية ، وتقدم مقالاته في درس الشخصيات خطوة أولى في نشوء المقالة ومن بعدها الرواية .

ولقد ذاق أديسون ألم الفقر ولكن إلى حين . وبعد معركة بلنهام

احتاج حزب الطورى إلى من يخلدها فى قصيدة . وكانت قصيدته عن هذه المعركة فاتحة لنجاحه ، وقد اتبع فى نظمها طريقة جديدة ، إذ أنه بدلا من أن يجعل القائد بطلا يفتك بالأبطال جعله قائداً يصدر الأوامر من بعيد وشبهه بملك تكتنفه عاصفة ، وفى هذا المعنى يقول :

لقد ثبتت نفس ما لبورو العظيمة
رغم اصطدامها بالجيوش الزاحفة
وبين الفرع واليأس والفوضى
كان القائد يرقب مشاهد الحرب الفظيعة
وبنفس هادئة تتفحص ساحة الوغى
سارع بإرسال النجدة للجيوش الهزيلة
وألهم الفرق المنهزمة بالثبات
وشد عزائم النفوس اليائسة
كأنه ملك أرسل بعاصفة من السماء
كى ينزل الدمار بأهل الرذيلة

لفتت هذه القصيدة الأنظار ، ومنذ ذلك الحين لم يذق أديسون مرارة الفقر وبدأ ينتقل من منصب إلى منصب ، فكان عضواً فى البرلمان ، وسكرتيراً للحكومة فى أرنلدا وأخيراً أصبح وزيراً للدولة . ولم يصب كاتب آخر ما أصاب أديسون من التوفيق سواء فى الوظائف أو الأدب .

ورغم كثرة مشاغله في الحكومة بقي يتعاطى الأدب . وقد كتب
 مأساة اسمها « كاتو » أصبحت اليوم من المهملات ، فهي قديمة النزعة
 وليس فيها ما يشوق القارئ الحديث إلا أن فيها قصائد ومشاهد جميلة
 لم تدم سعادة أديسون إلى نهاية حياته ، فقد قضى أيامه الأخيرة في
 صراع عنيف مع زملائه الأدباء أمثال « بوب » و « سوفت » حتى أنه
 تخاصم مع صديقه وشريكه في العمل ريتشارد ستيل . فقد تنافرت
 قلوب الأدباء إلى حد بعيد . اختلفوا في السياسة ، وفي قواعد الأدب
 وتجاوزوا الحد إلى الطعن والشتم في كثير من الأحيان . على غرار
 ما انصف به أدباء ذلك العصر ، فقد كانوا يضيعون جهودهم في
 الخصومات التي لا طائل تحتها . وكثيراً ما كانوا ينسون أسباب الخصومة
 أثناء المجادلات . على أن التاريخ يعترف بنزاهة أديسون وسمو أخلاقه
 ومبادئه ، ولا يزال يقدر أعماله وجهوده ؛ ولقد جاءت مقالاته كرد فعل
 لما كان يتصف به الأدب من خشونة ، وما كان في الحياة الاجتماعية
 من رياء ومداهنة وتصنع . فقد علم الناس البساطة والصرامة والصدق
 في المعاملة . وهو في هذا يشبه بعض كتّاب القرن التاسع عشر الذين
 حملوا على اندفاع الناس وراء المادة ، وسموا بتعاليمهم إلى المثل العليا
 في الحياة . ولم ييأس قط أديسون من إصلاح النفس البشرية ، وقد
 رفع من شأن النقد وتحليل الشخصيات بأسلوب ممتع ، رغم العناصر
 الرجعية التي فيه . وقد وصف جونسون أدب أديسون بقوله « كل من

أراد أن يكتسب أسلوباً انجليزياً صحيحاً بسيطاً بعيداً عن التعقيد ،
 رشيقاتاً خالياً من التباهى والزهو فليخصص أيامه ولياليه لمطالعة كتابات
 أديسون ، وكل من أراد أن يكون كاتباً لامعاً لا بد له من الإمعان
 في كتب أديسون الذي يمتاز بنبله وحسن أسلوبه . وبعد مرور نحو
 قرنين على وفاة الكاتب لا تزال مقالاته تقرأ ، إن لم يكن لمادتها
 فلا أسلوبها .

وقد كتب شعراً ، ولكن شعره ليس من الدرجة الأولى ، وقد وفق
 في بعض قصائد منها قصيدته في الخلود التي يقول فيها مخاطباً أفلاطون :
 لا بد أن يكون الأمر كما ترى يا أفلاطون ؛ إن تعليمك لصحيح
 وإلا من أين أتانا هذا الأمل السار ، وهذه الرغبة الملحة
 وهذا الاشتياق للخلود

لعمري من أين جاء هذا الخوف الخفي ، وهذا الفرع الداخلي
 إنها تلك الألوهية تتحرك في داخلنا
 إنها السماء نفسها توجهنا نحو الحياة الأخرى
 وتوعز إلى الإنسان بالبقاء

وفي هذا الشعر وأمثاله نجد أديسون لا يحيد عن اتجاه الشعر في
 عصره ، فهو يحاول أن يكون بليغاً وصادقاً في التعبير ، ولكن
 ينقصه الخيال والإلهام ، وشعره أقرب إلى النثر الجميل منه إلى
 الشعر الرفيع .

وقد كتب أديسون تراويل وأناشيد دينية ممتازة ، وبعضها لا يزال
ينشد اليوم في الكنائس ؛ أما « ستيل » صديق أديسون وشريكه في
العمل فكان يختلف عنه في الخلق والمزاج إلى حد بعيد . كان عاطفياً
حساساً طيب القلب ، واسع الاختبار في كثير من نواحي الحياة . فقد
خدم الجندية ، وكان مديراً لمسرح مدة من الزمن ، وعضواً في البرلمان ،
ولم يكن ليستقر في عمل واحد زمناً طويلاً ، ويرجع إليه الفضل في
استمرار المجلات التي اشترك في تحريرها مع أديسون . وظلت زمناً
أكثر مما كان يتوقع لها في ذلك العصر . ولقد كان في بعض النواحي
أعمق شعوراً وأشد إدراكاً لخفايا الأمور من صديقه أديسون ، لأنه
صادف في حياته من التجارب في الحياة العملية ما لم يصادفه أديسون ،
فقد عاش أديسون حياة السيد المكتفى ، أما ستيل فكانت حياته
مضطربة عديمة الاستقرار كثيرة المفاجآت . وهذا النوع من الاختبار
في الحياة تنعكس صورته في الأدب في كثير من الأحيان ، فيكون أشد
تأثيراً في نفوس القراء من ذلك الأدب النظري مهما كان أسلوبه رفيعاً .
أما غرض هذين الكاتبين فيتلخص في قول أديسون « يقال عن
سقراط إنه أنزل الفلسفة لتسكن بين الناس وأنا أطمح بأن يقال عني
بأنني انتزعت الفلسفة من الخزانات والمكاتب والمدارس والكلليات
لتجلس مع الناس على موائد طعامهم وفي مقاهيهم »
ولقد نفذ هو وصديقه « ستيل » هذه الفكرة ، ولا سيما في مجموعة

مقالات أسمياها سير « روجردى كفلى » وهى أوصاف لعدة أشخاص
تصورهم يؤلفون نادياً خيالياً ، وأهم هؤلاء الأشخاص « سير روجر »
وهو رجل غنى قروى فخور بأجداده وصورهم وتاريخهم ، وجد معجب
بصفاتهم ، فقد كانوا يحفظون العهود ، وعلى جانب عظيم من الكرم
والبساطة والصرامة . أما بعض صفات سير روجر فهى سعة الصدر
للأصدقاء ومعاملة الناس حسب أذواقهم ومشاربهم ، وعدم القسوة فى
معاملة الخدم . ويسهب الكاتبان فى التحدث عن آراء بطلهما ويحاولان
تعليم الناس بواسطته . فهو يعتقد أن الشرف هو خير من الحكمة ، وأن
طيبة القلب هى خير من الذكاء ، وأن الحب يلطف من خشونة الطبع
ويؤكد بأن خدمة المجموع هى من أهم عوامل التدين . وتراه يحاول
أن يدخل شعاع السعادة فى نفوس الفقراء ولا سيما فى عيد الميلاد ، وعلى
سبيل التفكهة والتخفيف من حدة البحث يذكر الكاتبان مثلاً أن
« سير روجر » لا يسمح لأحد سواه أن ينام فى الكنيسة والصلاة قائمة
وكان يكافئ الأولاد الأذكىاء بأهدائهم نسخاً من التوراة ، ولم يعين
من القساوسة سوى الأنقياء والأذكىاء فى كنيسته ، و « سير روجر »
يكره أن يكون فى قريته أحزاب ، وينظر لاجلئها كلها كأمة واحدة
تسعى لغرض واحد هو إسعاد الشعب ، ومع ذلك فهو ينتمى لحزب
« الطورى » ويدافع عنه لأنه يتلاءم ومصالحه . وفى هذا إشارة من
الكاتبين إلى النفاق السياسى فى عصرهما .

بهذه الوسيلة استطاع أديسون وستيل أن ينشرا أفكارهما ، وأن
ينتقدا النظم السياسية والاجتماعية بأسلوب فيكه لطيف لا ينفّر الجمهور
ولا يثيره ، وكان هذا جديداً في أدب القرن الثامن عشر ، بل قل أن
تجد له شبيهاً فيه ، إذ أن روح الأدباء بقيت إلى أواخر العصر مشبعة
بحب الخصومة والنزاع وتوجيه النقد الصارم لكل شيء .

٤ - جوناثان سوفت

١٦٦٧ - ١٧٤٥

يتفق « أديسون » « سوفت » في نزعتهما للإصلاح ، ويختلفان في المزاج والنظرة للحياة . وقد أدرك كل منهما مشاكل عصره ، وكره النفاق في سلوك الناس ؛ على أن « سوفت » كان شديد اليأس والتشاؤم بينما بقي أديسون مؤمناً بالبشرية والقوى الكامنة فيها إلى آخر حياته ؛ وكان سوفت حاد المزاج ، شديد الغضب لما كان يشاهده من نقص في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وكان نقده مرأ لا ذعاً ، وتهكمه يثير حتى الهادئين المسالمين من الناس .

كانت حياة « سوفت » تعسة ، لا لأنه كان فقيراً معدماً ، فهو لم يصل إلى درجة أقرانه من هذه الناحية ، وقد كان بإمكانه أن يصبح غنياً لولا أنه كان يبعثر المال ويزدريه . وقد وقف في حياته جميع ما يملك لإنشاء مستشفى للأمراض العقلية .

نشأ « سوفت » في أسرة فقيرة ، وقد فقد والده قبل أن يولد ، وبقي في كنف والدته الفقيرة التي اضطرت أن تلجأ إلى مساعدة الأقارب وكان يكره المدرسة ودروسها ، ويميل إلى مطالعة ما يوافق مزاجه من

الكتب ، وبعد صعوبات كثيرة حصل على درجة علمية أدت به إلى شغل وظيفة سكرتير خاص لقریب له اسمه « سيروليم تمبل » ، وكان سوفت يزدري هذا السيد ويعتقد أنه أكثر كفاية منه . وقد ألف كتاباً لم ينشر في ذلك الوقت يعارض آراءه في العلم القديم والحديث . وكان ينظر بعين الحسد لأولئك الذين كانوا يشغلون مراكز عالية ويتمتعون بشهرة واسعة ، وهم في نظره غير أكفاء لها . بقي نحو عشر سنوات يتألم من حالته ، وأخيراً درس اللاهوت ، وحصل على وظيفة دينية بسيطة في كنيسة أرنلدا ، وقد حاول وهو في هذا المركز أن يحسن حالة التعساء من الناس الذين حوله ، وكان يزداد مرارة وغيظاً لما كان يشاهده من الظلم واستبداد الرؤساء . وفي هذه المدة ألف رواية يتهم فيها على الكنائس المختلفة في ذلك الوقت ، وسرعان ما لفتت هذه الرواية الأنظار ، وأصبح يعد من كبار الكتاب التهميين في ذلك العصر ؛ وكان هذا النجاح فاتحة خير له . وعلى أثرها ترك الكنيسة ودخل المعتزك السياسي ، وأخذ ينشر كراسات في موضوعات مختلفة كما كانت عادة الكتاب في ذلك الوقت ، وعلى مر الزمن أصبح من ألمع الشخصيات في لندن . وكان أعضاء حزب «الوجز» يخشونه ويحسبون لتهمكه حساباً ، وأصبح ذا سلطة فكرية في البلد ، واضطر الكثيرون من نساء ورجال إلى مجاملته واسترضائه . وكان رد الفعل من ناحيته أن نزع نزعاً دكتاتورية ، وأساء استعمال قوته ونفوذه . وفي هذه المدة

كتب ما سماه «جريدة إلى ستيل» وفيها مديح وإطراء لنفسه وإعجاب بمقدرته، فهو مثلاً يشير إلى أنه رفض تلبية رغبة «دوق بكنغهام» في التعرف به لأنه لم يكن قد قدم بعد الاحترامات اللائقة. ويخاطب سيدة من الأشراف تعرفت عليه قائلاً لها: إنه مسرور لأنها عملت ما كان يجب عليها في سبيل التعرف عليه، وإلا لما أقدم هو قط للتعرف عليها. وهذه القسوة تظهر في علاقاته مع الناس عموماً - ولا سيما السيدات اللواتي كن سريعات التأثير بشخصيته فقد كان يزدريهن ويهزأ بهن؛ وقد أثر هذا الخلق في أدبه وأقل ما يقال فيه أنه أصبح أدباً مريراً قاسياً.

على أن هذا المركز الاجتماعي الخطير الذي كان يشغله لم يدم طويلاً، وبسقوط حزب الطوري تضائل مركزه، وعاد يشغل عملاً ليس بذي شأن في كنيسة أرنلدا، وهنا ألف كتابه المشهور «رحلات جلوفر» الذي لاقى رواجاً هائلاً، وقد أصيب بمرض عقلي على أثر وفاة فتاة اسمها «استر جونسون» أحبها «سوفت» منذ أن كان سكرتيراً عند وليم تمبل، وكان قد وجه «جريدة ستيل» إليها. وانتهى به المرض إلى جنون، وهذا ما جعله في ساعات صحوه يوصي بجميع ما يملك لإنشاء مستشفى سانت باتريك للمجانين.

أما موضوعات مقالاته وكتبه فجديدة مبتكرة، وكلها تتم عن سخط ومرارة في النفس، وغرضه واحد لا يتغير وهو أن يهزأ من البشر وأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم. فهو هدام لجميع ما لا يتلاءم وذوقه، وقد تجاوز الحد

فى سخريته من المجتمع البشرى ، ولا نعرف كانباً إنجليزياً فى أى
 عصر من العصور بلغ هذا الحد من النعمة . وقد قلده كثيرون فى عصره
 ولكنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه . ومفكرو الإنجليز حتى وقتنا الحاضر
 يحذرون الشباب من قراءة كتبه ولا ينصحون أحداً بقراءة مؤلفاته ؛ يستثنون
 منها كتاباً واحداً أصبح يقرأ فى المدارس ويعتبر قطعة خالدة فى الأدب
 الإنجليزى ، وهذا الكتاب هو « رحلات جلغر » وخلاصته أن رجلاً اسمه
 « لويل جلغر » قام برحلات فى عدة بلاد خيالية ، زار بلاداً يسكنها
 الأقزام الذين لا يزيد الواحد منهم على طول الإبهام . وهنا يصف الكاتب
 منازعاتهم وعواظهم وآمالهم القزمية التى تناسب وأجسامهم . فهم
 يتخاصمون ويثيرون بينهم حرباً أهلية بسبب نقاش بينهم فيما إذا كان
 يجب أن تكسر البيضة من رأسها أولاً أو من عقبها . وأراد « سوفت »
 بوصف هؤلاء الأقزام أن يعرض أعمال السياسيين وأفكارهم فى عصره
 للسخرية . وفى رحلة ثانية يزور « جلغر » بلاد الجبابرة ويتحدث
 إليهم عن أهل بلاده وأعمالهم وحروبهم . فيعجب العمالقة من حديثه
 ويستغربون أن يحدث هذا فى بلاد لا يزيد حجم أفرادها على حجم
 محدثهم ، ويذهب إلى جزيرة طائرة معلقة فى الهواء ، وهنا يهزأ
 « سوفت » من مجهودات الفلاسفة فى هذه الجزيرة ، فقد اشتغل أحدهم
 ثمانى سنوات يحاول أن يستخرج نور الشمس من الخيار .
 ومقصده من هذه الرحلات الثلاث أن يميظ اللثام عن عادات قومه

وسلوكلهم ويبين كيف أن الناس يخذعون أنفسهم بما يدعون من علم ومعرفة . وفي رحلة رابعة يصور بلاداً يحكمها الخيل ، ويسيطرون على نوع من المخلوقات لهم شكل البشر ولكنهم ليسوا بشراً .

وكان «سوفت» يغتنم كل فرصة تسنح ليهزأ بالخرافات والأباطيل ، ومن جملة ما كتب نبوءة عن منجم دجال كان يخذع الناس بسحره وشعوذته . وعين في نبوءة يوم وفاة ذلك الدجال ، وبعد مرور يوم من الوقت الذي عينه كتب مقالا آخر يعلن وفاة الدجال فعلا ويرثيه . فما كان من الدجال إلا أن كذب الخبر ، ولكن «سوفت» عاد فأيد الخبر ، وحاول إثباته بقواعد فلسمية وأكّد للناس أن هناك رجلاً منافقاً آخر .

٥ - صمويل جونسون ✓

١٧٨٣ - ١٧٠٩

هذا الرجل مزيج من البشاعة والظرف والخشونة والرقّة والقسوة والالطف ، ليس بشاعر كبير أو ناثر كبير ، وأكثر ما كتبّه لا يدل على نبوغ أو تفوق في الأدب . شكله الخارجى لم يكن يدل على ذكاء ، وهندامه يدل على قلة ذوق ، وثقل ظل ، يشور من حين لآخر فيتمفوه بالفاظ تنفر سامعيه ، صوته مزعج ، ولم يكن يراعى آداب المائدة والجلوس ، ومع ذلك أصبح يعد من زعماء الأدب في القرن الثامن عشر بل قد سمي العصر من الناحية الأدبية بعصر جونسون ، فكيف كان ذلك ؟ .

تعود شهرة هذا الرجل الأدبية إلى قوة شخصيته ومثانة أخلاقه ، وقد وجد الناس فيه رغم بشاعة مظهره وخشونة طبعه محدثاً من الدرجة الأولى ، فإذا ما بدأ يحدث الناس استولى على نفوسهم فيطلبون المزيد من حديثه وينسون جميع نقائصه ، كان ذا شخصيتين متنافرتين ، وقد قال عنه الكاتب جولد سميث « لقد كان إنساناً في جلد دب » . بقي هذا الرجل إلى آخر حياته يصارع الفقر والفقر يصارعه ، دون أن يستسلم أو يئأس أبداً ، وكان حساساً إلى أقصى حد ، وقد أدى به هذا الإحساس الدقيق إلى أن يكون سوداوى المزاج ، وفي خوف دائم من

قدوم الموت ، ورغم ما قاساه من الصعوبات والآلام بقي مؤمناً بالله هو بنفسه ، وكان رجعيّاً في آرائه السياسية ، أى أنه كان يميل إلى الحكم الملكي المطلق ويقاوم نزعة الحرية في الناس ، وفي نفس الوقت كان شديد العطف على الفقراء والمعوزين ، ولا يترك فرصة تفوت دون أن يقدم مساعدة لأحد . ويحكى عنه أنه رأى مرة فقيراً نائماً على قارعة الطريق فوضع له قطعة نقود في كفه ومشى ، كي يجدها ذلك المسكين عند ما يستيقظ فتبتهج نفسه ، وما ذلك إلا لأنه خبر ألم الفقر والجوع ، وكان سىء الحظ في الحياة ، وقد وصفه كارليل بقوله « لقد كان رجولية صادقة خالصة » . لهذه الأسباب قدره الناس وأحبوه .

نشأ صمويل جونسون بين الكتب لأن أباه كان بائع كتب فقير الحال . وكانت العادة أن لا يتخذ بيع الكتب مهنة في ذلك الزمن إلا من كان محباً للقراءة والكتب . فنشأ جونسون في جو ساعده على اكتساب المعرفة . وعند ما دخل « أكسفورد » كانت معلوماته العمومية تكاد تفوق معلومات المتخرجين فيها . ولسوء الحظ اضطر بسبب فقره إلى ترك الجامعة قبل أن ينهى دراسته ، ومن هنا تبدأ سلسلة آلامه واختباراتِه المحزنة .

بدأ حياته كغيره من الكتّاب البائسين يجاهد في سبيل الحصول على القوت . وفي سن الخامسة والعشرين تزوج امرأة تكبره كثيراً في السن كانت تملك بضع مئات من الجنيهات . وبهذا المبلغ أسس مدرسة

خصوصية لم يكتب لها النجاح طويلاً فاضطر إلى ترك بيته وذهب إلى لندن ساعياً في طلب الرزق يصحبه تلميذه وصديقه « ديفد جاريك » الذى أصبح فيما بعد ممثلاً شهيراً . وفى لندن عاش « جونسون » حياة بؤس وشقاء شأن الكثيرين من الكتاب أمثاله . ولكنه استمر يكتب إلى أن أصبح معروفاً لدى أصحاب الصحف والمكاتب . وطلب منه يوماً أن يعد معجماً للغة الإنجليزية . فدأب على عمله هذا نحو ثمانى سنوات . وقبل أن ينتهى منه كان قد أنفق الأجرة الزهيدة التى تعاقد الناشر معه عليها . وفى أوقات فراغه كتب قصائد كثيرة ومقالات وقصصاً كان ربحه منها ضئيلاً .

وبعد أن انتهى من وضع المعجم أنشأ صحيفة على طراز « سبكتاتور » سماها « ريميل » وأتبعها بمجلة أخرى سنة ١٧٥٨ سماها « أيدلر » . ولما كان كريماً سخى الكف لم يدخر مما ربحه من هذه الصحف شيئاً ، بل أنفقه فى أعمال البر والإحسان . وعند ما توفيت والدته يقال إنه اضطر إلى الإسراع فى وضع كتاب سماه « رازلاس » كى يقوم بنفقات الجنازة .

بقى جونسون تحت كابوس الفقر إلى أن بلغ الخامسة والخمسين . وأخيراً منحه الملك جورج الثالث ثلثمائة جنيه تصرف له كل عام على سبيل المعاش . بهذا المبلغ استطاع أن يعيش حياة أكثر رخاء . وبمعاوضة بعض زملائه أسس نادياً أدبياً كان يجتمع فيه الأدباء

اللامعون أمثال «بيرك» و «بت» ، «وجيمون» «وجولدسمث» وغيرهم من الرجال البارزين في الأدب والسياسة . وقد اشتهر جونسون في هذه المدة خاصة بأحاديثه الطلية التي كان يسجل كل كلمة منها صديقه وملازمه «بوزويل» . وإن كنا نعرف شيئاً مفصلاً عن جونسون فإن الفضل إنما يرجع إلى هذا الرجل الذي خصص جزءاً كبيراً من وقته في مصاحبة جونسون وتسجيل كلماته وحركاته ، وأصبح هو مؤرخ حياته في النهاية ، وكانت معظم أحاديث جونسون جدلية شأن أحاديث ذلك الزمن التي كان يحاول فيها الواحد أن يفهم الآخر وأن يعرضه للهرؤ والسخرية . وكان جونسون جد مولع بهذا النوع من الجدل ، لا يمل منه ولا يتعب ويقبل عليه مصمماً أن لا يتراجع إلا وقد حطم خصمه . وكثيراً ما كان يؤدي هذا النوع من الجدل إلى الشتم وتوجيه الإهانات للخصم ؛ فمن قول «جونسون» عن «هيوم» في معارضته له بشأن الموت «إن كان هيوم يفكر هكذا ، فهو ناقص الإحساس ، بل هو مجنون ، وإن كان لا يفكر هكذا أويديعه فهو إذن منافق كذاب» . وهكذا كان ينتهي الجدل دون الوصول إلى نتيجة مرضية . فقد كانت النزعة فيه أوتوقراطية عاطفية لا شأن للعقل والمنطق فيها .

ولم يكن جونسون مبتكراً في الأدب ، بل كان لغوياً بحاثه في حياة رجال الأدب ؛ وأحسن ما قدمه للأدب الإنجليزي هو المعجم المشار إليه ، ويليه مجموعة أبحاث عن حياة الشعراء . ومع ما في معجمه من الأخطاء ،

إلا أنه أول « قاموس » وضع في اللغة الإنجليزية ، ومن الغريب أنه سمح لمواطنه وآرائه الشخصية أن تتدخل في تعريف الكلمات ، وحتى ذلك الحب الذي يقدم في إنجلترا للخييل وفي سكوتلاندا للناس . ! ! وفي تعريف كلمة « معاش » يغتنم الفرصة ليهزأ من زملائه الذين داهنوا وصانعوها كي يحصلوا على معاش من الكبراء مع أنه هو نفسه قبل معاشاً من الملك جورج الثالث كما رأينا .

أما كتابه « حياة الشعراء » ففيه لذة وفائدة ، ومن الغريب أنه لا يتقعر في لغة هذا الكتاب كما هي عادته ، بل يعتمد إلى البساطة في انتقاء الألفاظ وسبك العبارات ، على أن عامل النقد فيها ضعيف ، ولم يوافق أحد من النقاد المتأخرين على الآراء التي عرضها ، فهو يتحامل على البعض بدون سبب ظاهر ويمدح من لا يستحقون المديح ، فمثلاً نراه يفضل « بوب » ذلك الشاعر الثقيل التكلف على « ملتن » النابغة . ولولا الأسلوب الذي كتبت فيه هذه المقالات لما كان لها شأن يذكر في الأدب الإنجليزي .

وقصته الوحيدة التي تستحق الذكر هي « رازلاس » أي أمير الحبشة ، ومع ذلك فهي ليست قصة بالمعنى الصحيح ، ولا توافق الجو الذي وضعت فيه ؛ بمعنى أنها أوروبية أكثر مما هي شرقية ، كما هو المفروض فيها أن تكون . وهي مجرد عرض لآرائه الاجتماعية والدينية ، بل هي محاولة لإظهار قدرته الخطابية الجدلية ، وإثبات براعته في

الإنشاء وسبك العبارات . ويقال إنه تأثر بقصة « لفولتير » اسمها « كانديد » ونسج على منوالها ، لأن المغزى الأدبي في القصتين واحد ، ويتلخص في الاعتقاد أن غرض الحياة إنما هو السعى وراء الفضيلة ؛ مع العلم أن السعى وراء الفضيلة ليس من الضروري أن يضمن السعادة للإنسان . وفي هذه الحالة يتحتم على الإنسان الفاضل أن لا ينتظر مكافأة من هذه الحياة على فضيلته ، بل قد يصيبه من الآلام أكثر مما يصيب الرجل الفاسد الشرير ، وبهذه النظرية يحاول جونسون أن يدخل شيئاً من الراحة والعزاء إلى قلبه . فقد حاول هو أن يقيم الفضيلة في حياته . ومع ذلك شقى وتعس .

وإخلاصة أن حياة هذا الرجل كانت مظهرًا من مظاهر الحياة الأدبية والاجتماعية في القرن الثامن عشر . شقى وجاع وتآلم لأن الشعب لم يكن بعد يقدر المجهودات الأدبية حق قدرها . عاش مجاهدًا إلى النهاية لأن ظروف العصر القاسية كانت تحرك الضمائر وتستفز الشعور وتدعو ذوى الفكر والمواهب أن يصلحوا ما قد فسد . وكان عاطفياً في نقده ، لأن النقد كان يجتاز طوراً خطيراً في هذا الزمن ؛ ومع ذلك كان نقده مبنياً على علم وإطلاع واسع ، ولكنه متأثر بعوامل دينية وقواعد أدبية لم يكن العصر قد تجاوزها بعد ، ومع أن جونسون لم يكن تقدمياً في الأدب ولم يكن من شأنه أن يساعد على انتقاله السريع إلى العصر الرومانتيكى نظراً لرجعيته ، إلا أنه وضع قواعد للأدب كان من شأنها حفظه من خطر الفوضى مدة من الزمن .

٦ - أولفر جولد سميث

١٧٧٤ - ١٧٢٨

لا ندرى أنعد « جولد سميث » شاعراً أم ناثراً أم روائياً أم كاتب مقالات . فهو قد جمع في أدبه بين الشعر والنثر وعالج الرواية التمثيلية وغير التمثيلية بنجاح ملحوظ ، وله عدة مقالات في موضوعات مختلفة . إنا نميل إلى نثره أكثر مما نميل إلى شعره ، ونجد فيه ميزة خاصة تقر به من العصر الرومانتيكي ، أما شعره فليس فيه نزعة جديدة ، وهو أقرب في أسلوبه الشعري إلى روح عصره . أوزانه بسيطة ونطاق خياله ضيق محدود ؛ وكثير منه يمكن أن يكتب نثراً دون أن يفقد قيمته . ومع أن تأثير « جونسون » فيه ظاهر في شعره ونثره معاً ، إلا أنا نلاحظ في نثره محاولة للتفلت من القيود . ولسنا نعرف كاتباً وناثراً رق شعوره واستقل في تفكيره في القرن الثامن عشر أكثر من « جولد سميث » .

كان جولد سميث شخصية متناقضة : غيباً في بعض النواحي ، وذكياً مفرط الذكاء في نواح أخرى ، وقد اضطر أن يزوج بنفسه بين الأدباء ويتخذ الأدب مهنة لأنه فشل في كل محاولة أخرى . كان في المدرسة في طليعة الطلاب الأغنياء ! درس اللاهوت ولكنه لم يفلح .

وجرب أن يكون معلماً ، ولكن مزاجه لم يتلاءم ومهنة التعليم . حاول أن يدرس القانون ، ولكنه بدد المال الذي خصصه لهذا الغرض على مائدة القمار . دخل كلية الطب ولكنه كان يقضى معظم وقته في الغناء وسرد الحكايات لرفاقه الطلاب . سافر إلى أوروبا بقصد أن يتابع درس الطب وهناك أضع ما كان معه من نقود ، واضطر أن يحصل معيشته بالغناء في الشوارع . وبعد ستة أشهر من حياة التشرذ عاد إلى لندن ، وهنا بدأ يصارع الفقر والفقر يصارعه . وتعاطى أعمالاً كثيرة ولكنه لم ينجح أو يستقر في واحد منها . وأخيراً أجبر على اتخاذ الأدب مهنة ويالها من مهنة في ذلك الزمن ! . تعرف بجونسون وتصادقا وكان «جونسون» يقول عنه « إنه أول كاتب بيننا » واستمر يشجع « جولد سميث » ويطرى كتاباته إلى أن أقبل الناس عليه وأحبوه فتمحسنت حالته المالية إلى حد ما . وكان يميل إلى الملابس الزاهية وأعمال البر والإحسان ، وفي هذا السبيل كان ينفق أكثر مما يكسب فتراكمت عليه الديون . ولكي يسدد ديونه أخذ يعد كتباً للمدارس . وبقى يقوم بأعمال أدبية بسيطة في سبيل الحصول على القوت زمناً طويلاً ، ولم تظهر قدرته الأدبية إلا بعد أن نشر كتبه التي أصبحت تعد قطعاً خالدة في الأدب الإنجليزي . ومن طريف ما يذكر أن ربة البيت الذي كان يسكنه منعه من الخروج يوماً إلى أن يسدد مالها عليه من دين . فأرسل رسالة عاجلة إلى صديقه «جونسون» يخبره بواقع الحال ، فأرسل له «جونسون»

رسالة ومعها جنينه يخبره بأنه قادم إليه في الحال ، وعندما جاء عرض عليه « جولد سميث » روايته « قسيس ويكفيلد » ؛ ونظر فيها « جونسون » برهة ثم ذهب من ساعته إلى أحد الناشرين وباعها بستين جنيتها ثم عاد بها إلى صديقه كي يسدد دينه .

كان « جولد سميث » شاذ الطبع والسلوك ، متقلباً في مزاجه وأذواقه ؛ ومع ذلك كان محبوباً من رفاقه ، وكان إذا غاب عن حلقتهم يوماً اشتاقوا إليه . وقد مات في سن السابعة والأربعين ، على أثر تناوله دواء ساماً كان يبيعه الدجالون في ذلك الوقت . وبعد موته كتب « جونسون » على قبره « لفتناس نقائصه ، فقد كان بالرغم منها رجلاً عظيماً » . ولقد عمل الناس بهذه النصيحة ، وهم لا يزالون يقدرّون هذا الرجل رغم ما ظهر في حياته من الضعف والتناقض .

ورغم ما في كتابات « جولد سميث » من التجديد بالنسبة لأدب العصر إلا أن مزايا العصر تظهر فيها واضحة جلية . فقصيدته « المسافر » لا تختلف عن منظومات العصر إلا في موضوعها . وأوزانها الشعرية بسيطة وتسودها روح النقد والميل لمعالجة المشاكل الاجتماعية لا في انجلترا وحدها بل في البلدان الأوروبية التي زارها ، وهي تعبير صادق عن شعوره واختباراته التي صادفها في تجواله . ويظهر تأثير « جونسون » عليه في هذه القصيدة خاصة ، فهو يميل إلى الطريقة الكلاسيكية

بمعنى أن أسلوبه فيها يكاد يكون آلياً ميكانيكياً ، وليس فيه من
العاطفة والخيال ما يكفي لتلطيف حدة الواقع .

وهناك قطعة شعرية أخرى أجمل من سابقتها واسمها « القرية
المهجورة » وهى عبارة عن ثورة الفرد على المؤسسات والنظم ،
ولا تختلف في وزنها عن غيرها من القصائد التى كتبت فى ذلك العصر .
أما رواياته التمثيلية فتحاول تصوير الشخصيات بصورة هزلية تهكمية
وتتجه إلى الناحية الرومانتيكية بتصويرها شخصيات غريبة بعيدة عن
الواقع ؛ رغم أن القصص التى فيها مفككة الأجزاء ، تنقصها الوحدة التى
نجدها فى الرويات الممتازة فى العصر الحديث .

٧ - إدموند برك وجييون

١٧٩٧ - ١٧٣٠ * ١٧٣٧ - ١٧٩٤

في بحث موجز كهذا ، غرضه أن يعطى القارئ لمحة خاطفة عن اتجاهات أدب القرن الثامن عشر كما تجلت في آثار أدبائه ، لا نستطيع أن نتمادى في تحليل الفروق الدقيقة بين الكتاب ، وأن نتناول أمياله المتعددة بالدرس والتفصيل ؛ وحسبنا أن نذكر الصفات البارزة التي تجلت في أدبهم ، والتي كان لها شأن في تكوين الأدب الرومانتيكى الخالص في القرن التاسع عشر .

لم تبدأ الحركة الرومانتيكية في أوائل القرن التاسع عشر بطريقة مفاجئة ، بل بدأت ونمت تدريجاً في أواسط القرن الثامن عشر . وبقى الميل للنزعة الكلاسيكية التي تجلت في أدب « أديسون » « وسوفت » و « جونسون » يساير القرن الثامن عشر كله ، وفي الوقت نفسه نلاحظ هنا وهناك شذوذاً عنها في اختيار الموضوعات وفي اللغة والأسلوب ، ولا سيما في الشعر ، فقد بدأوا ينزعون نزعة حرة منذ ذلك الحين ، ولكن تكامل هذه الحركة ونضوجها لم يتم إلا في أوائل القرن التاسع عشر أى في زمن « ورد زورث » « وسكوت » « وكولردج » . والنثر في ذلك الوقت ، أى في النصف الثانى من القرن الثامن عشر أخذ يتجه (٤)

اتجهاً جديداً ، « فادموند برك » « وجيمون » مثلاً يكتبان بلغة « جونسون » ، ولكنهما يفكران بطريقة أشبه بطريقة الرومانتيكيين . كان « برك » خطيباً بليغاً ، وقد ترك لنا اثني عشر مجلداً من تأليفه وكلها أبحاث مطولة في السياسة والاقتصاد ووجهات نظر العصر ، وقد وجه اهتمامه إلى درس المستعمرات الأميركية ، وصارح حكومته بضرورة منح تلك المستعمرات مطالبها . وخطبه عن الضرائب وعن ضرورة التفاهم والتوافق مع أميركا ودفاعه عن الهند تعد من أروع الخطب في اللغة الإنجليزية ؛ رغم أنها لم تحدث أثراً بالغاً في نفوس الإنجليز إلا بعد زمن . ومن الغريب أنه كان يقاوم آراء الكتاب الرومانتيكيين في أواخر القرن ، رغم أنه أثبت في كثير من أقواله وكتاباتاته أنه واحد منهم ، ولكنه على ما يظهر كان يخشى شبح الثورة في البلاد بتأثير الثورة الفرنسية والكتاب المتطرفين . وبعض المؤرخين يعتقد أن خطب « برك » هي التي منعت تسرب المبادئ الثورية بصورة فعلية إلى إنجلترا ، وأدت في النهاية إلى إعلان الحرب والانتصارات في موقعي « الطرف الأغر » و « ووترلو » .

والواقع هو أن « برك » مزيج من الكلاسيكية والرومانتيكية . نراه في بعض كتاباته جافاً ضيق الأفق ، وفي بعضها نجده مليئاً بالأمل والحياة ، يتدفق عاطفة ويسمو فوق السفساف والجدل السخيف . ففي نقده للثورة الفرنسية مثلاً كان كالواعظ المتحمس لا يقبل عن آرائه

بديلا ، ويحاول أن يثبت صحة أقواله بالضجيج والغضب ،
 لا بالنقاش الهادئ النزيه ؛ أما في خطبه فهو ذلك الرجل الذى لا يحاول
 إقناع الناس بالحكمة والاندفاع ، بل بالكشف عن الحقائق بطريقة
 رزينة هادئة . ولا يحاول أن يلبس ما يقول ثوبا مزرعشا ، بل يترك
 نفسه تتحدث إلى الناس ببساطة ووضوح ، ويعرض القضية عليهم من
 جميع وجوها بأسلوب هو أقرب إلى الشعر منه إلى النثر ، وخياله
 خصب وحججه قوية مفحمة ، وهو عالم بالحقائق التى يتحدث عنها ،
 وله اطلاع واسع فى التاريخ ، ولا يطلب سوى العدل فى جميع القضايا
 ولا يقبل عن العدل بديلا . ولو قابلنا مثلا ما كتبه عن « مارى
 انطوانيت » بما قاله فى الدفاع عن الهند ، نجد فى الموضوع الأول
 عاطفيا ليس لديه من الحجج والبراهين ما يدعم به أقواله ، فهو يلوم
 قاتلى الملكة دون أن يتعرض لما قاساه الشعب من أعمال الملكة وسلوكها
 من آلام ، وهو فى دفاعه عنها متأثر بما تركته مشاهدته لها منذ سبعة
 عشر عاما — كما يقول — فى نفسه من إعجاب وتقدير ، وقد كانت
 عندئذ فتاة جميلة بريئة ، ولم تكن قد أصبحت ملكة بعد . أما فى
 الموضوع الثانى فهو يزن الأمور بدقة ويربط الأسباب بالمسببات ،
 ويدافع عن الحق بدون تحامل أو محاباة ، ويحذر حكومته من عواقب
 الأمور . فهو من هذه الناحية مجدد فى طريقة البحث والجدل .

أما « جيمون » فمشهور كمؤرخ لا كأديب ، ولولا كتابه « سقوط
الأمبراطورية الرومانية » لما كان الآن يذكر بشيء . وبإزاء هذا
المؤلف التاريخي كتب مذكرات تساعد على فهم شخصيته . ويظهر
منها أن « جيمون » كان مادي النزعة يميل للراحة والحياة السهلة . فهو
لا يغامر ولا يطمح إلى أبعد من أن يكون بعيداً عن القلق الناشئ عن
العوز والفاقة . وقد ضحى بحبه العنيف لفتاة لثلا يفقد شيئاً من عطف
والده وراحته البيتية .

أما تاريخه فبعيد عن الروح العلمية الحديثة . فهو يكتفي بذكر
الحقائق ولا يحاول كشف الأسباب أو التعليل النفسى ، وينقصه التعمق
في خفايا الأمور . على أنه واسع الاطلاع ، ولا يحاول استخدام معلوماته
الغزيرة لأغراضه ودعايته . فهو نزيه عادل من هذه الناحية . وأخطاؤه
ناشئة في الغالب عن نقص في المعرفة لا عن سوء نية . ويمتاز عن سائر
المؤرخين في عصره بأنه يرجع إلى المصادر والوثائق الأصلية ، وهي نزعة
جديدة في هذا العصر الذى كانت تغلب عليه السفسطة والاقتصار على
ظواهر الأمور . أما لغته فتميل إلى النزعة الكلاسيكية ، بل تفوقها
تعقيداً في كثير من الأحيان . وجمله طويلة بدون سبب موجب ،
وأسلوبه متعب للقارئ وقد يبعده عن فهم الناحية التاريخية . وقد
أثرت نظراته المادية في الحياة على كتابه ، فتراه لا يهتم بالنواحي الروحية

والنزعات الإنسانية ، ولا يتكلف في الوصف وسرد الحوادث . وشتان
 بينه وبين تاريخ « ما كولى » أو « كارليل » مثلاً في القرن
 التاسع عشر ، ففيهما يجد القارى أمنيته ، ومع ما فى أسلوبيهما من
 التعقيد بالنسبة لأسلوب المؤرخين فى العصر الحديث ، فإن مطالعة
 كتبهما أسهل وأشد متعة .

٨ — نشوء الرواية

« ١ »

من أهم الأحداث الأدبية في القرن الثامن عشر : الرواية ؛ ولا بأس أن تمهد لهذا بالكلمة التالية

قبل أن يدخل الإنسان في طور الحضارة كان يميل بطبيعته إلى سماع القصص والحوادث وأخبار الأبطال ، وكان الناس يلتفون جماعات حول من أوتوا تلك المقدرة على سرد الحكايات ، ولم يكن الغرض منها سوى التسلية والتفككة بعد ساعات العمل . ورغم أنه لم يقصد بهذه القصص تعليم الناس شيئا ، إلا أن تأثيرها كان شديدا على السامعين ، فإذا ما عدت مناقب بطل من الأبطال حاول السامع عن قصد أو غير قصد أن يحقق في نفسه هذه المناقب أو بعضها ، وإذا ما ذكرت الفضائل كان لها من التأثير النفسى ما قد يؤدي إلى تحسين حالة القوم الأخلاقية والرفع من مستواهم . وبعبارة أخرى كان للرواة في تلك العصور الغابرة أثر في حياة الناس اليومية ، وكانوا يتلقون منهم دروسا بطريقة غير مباشرة تناسب ظروفهم وأحوالهم .

على هذا التراث القديم وهذا الميل الإنسانى بنيت الروايات الإنجليزية في القرن الثامن عشر وما بعده . فقد وجد الكتاب أن الناس يميلون

بطبيعتهم إلى سماع أو قراءة قصة أكثر من ميلهم لسماع أو قراءة قصيدة أو مقالة . وهذا الميل يظهر جليا في الأطفال . و تراهم يميلون خاصة إلى القصص الخرافية التي تكثر فيها أوصاف الفرسان والعماقة والجن والسحرة ، وإذا لم تتح لهم الفرصة لسماع قصص من هذا النوع فهم يخلقونها ويتحدثون عنها فيما بينهم . وقد نحسب هذا ميلا للكذب في الأولاد ولكن الواقع هو أن الأولاد إنما يريدون أن يعبروا عن ميل للقصص كامن فيهم . وعندما يكبر الأولاد تتطور هذه الناحية فيهم إلى شوق لمعرفة شيء عن حياتهم العادية اليومية ، وما فيها من دوافع ومؤثرات ، ومن أحزان ومسررات ؛ والقصص الناجح هو ذلك الذي يستطيع أن يصور للناس عواطفهم وإحساساتهم ويطلعهم على خفايا قلوبهم . وكان لا بد لمنشئ الرواية في القرن الثامن عشر أن يبدأوا من حيث أرغمتهم طبيعة الجمهور أن يبدأوا ؛ أي أن يعتمدوا إلى وصف الواقع مخفين من حدته بشيء من الخيال ؛ وأن يعتمدوا على عاطفة جد قوية في نفوس الناس هي عاطفة الحب وأن يصفوا العلاقة بين الرجل والمرأة بطرق مختلفة .

ولم تكن هذه أولى المحاولات في فن القصة ، بل سبقها عدة محاولات في القرون الماضية ، بعضها مستمد من الأدب اليوناني والروماني ، وبعضها منتزع من الحياة الإنجليزية الأصلية ، منها روايات « الملك آرثر » ، و « سير كوين » و « الفارس الأخضر » و « قصص كنتربري »

المشهورة لشوسر في أواخر القرن الرابع عشر . وفي عصر الملكة « أليصابات » ظهرت « الأيتوبيا » لكتاب أمثال « فرنسيس بيكون » « وتوماس مور » ؛ وهى على نمط جمهورية أفلاطون ، تصور عالماً آخر لا وجود له . وفي العصر البيوريتانى أى فى القرن السابع عشر ظهر كتاب دينى النزعة اسمه « سياحة المسيحى » « لجون بانيان » وضع فى شكل قصة بسيطة مفككة الأجزاء ، ثم جاءت محاولات « سوفت » « وأديسون » « وستيل » التى تحدثنا عنها سابقاً .

على أن جميع هذه المحاولات لم تف بالغرض المطلوب إلى أن جاء « ريتشرد سون » برواية « باملا Pamela » . فقد كانت هذه الرواية — رغم نقائصها بالنسبة لروايات العصر الحديث — أول محاولة لوصف الأشخاص فى حياتهم العادية اليومية ، وتحليل غير عميق للعاطفة التى تسوقهم ، وهى لا تعتمد على حادثة واحدة معينة أو على نوع واحد من الاختبار والمغامرة ، بل على سلسلة من الحوادث والاختبارات . وقد لاقى هذا النوع من القصص إقبالا عظيما من الجمهور ، بينما كانت الكتب الأخرى لا يقرؤها سوى عدد قليل من الناس ، لأن عدد القراء على العموم كان قليلا فى ذلك الزمن . ولم تكن عامة الناس تهمها مجادلات « جونسون » وأبحاث « أديسون » . فعندما طلعت الرواية وجدوا فيها وسيلة الممتعة والتسلية ، ولا سيما أن

الرواية أصبحت تهتم بحياة الفرد وترفع من شأنه وتعنى بأفكاره وعواطفه وآماله .

وأحد الذين أعدوا الطريق فعلاً لنشوء الرواية بالمعنى الصحيح ومهدوا السبيل إليها هو « دانيال ديفو » ، بل إن كثيرين يعدونه أول منشىء للرواية . وعلى كل حال فإن كتابه « روبنسون كروزو » المشهور يحتوى على بعض عناصر الرواية ، وإن تكن القصة خيالية بعيدة عن الحياة العملية . فهي ليست درساً لعواطف الإنسان ، وليس فيها تحليل للظروف والمحيط . وهى أقرب إلى الكلاسيكية من حيث إنها تحاول أن تؤول الحوادث تأويلاً أدبياً ، وتهتم بالفلسفة الأخلاقية شأن كتاب المقالات فى ذلك العصر . وتنزع نزعة رومانتيكية بمعنى أنها تكتب طبقاً للقواعد الأدبية فى قالب قصة كلها مغامرات ومخاطرات . وخلاصتها أن رجلاً اسمه كروزو أوصله القدر إلى جزيرة نائية ليس فيها إنسان ، وبقوة إرادته ومثابرته استطاع أن يتغلب على المصاعب والمحيط . وقد صنع بيديه ما يلزمه من أدوات ، وعاش حياة سعيدة مستغنياً عن عالم المدنية .

والمتفق عليه هو أن « صمويل ريتشاردسون » هو منشىء أول رواية بالمعنى الصحيح . « كان صمويل ريتشاردسون » فى حياته مولعاً بكتابة الرسائل . ومن طريف ما يحكى أن الفتيات العاشقات كن يتهافتن عليه كى يكتب لهن رسائل غرام لعشاقهن ، وكان هو نفسه

مولعاً بمعاشرة السيدات أكثر من معاشرة الرجال ، فدرس عواطفهن وعرف عنهن الشيء الكثير ، وهذا يظهر جلياً في وصفه لهن . وكانت مهنته الطباعة ، وقد كلفه الناشرون كتابة رسائل نموذجية كي يستفيد منها من لا يستطيعون كتابة الرسائل . وهيأت له الفكرة أن يجعل من هذه الرسائل قصة موحدة متكاملة ؛ وقصة « باملا » هي عبارة عن سرد مفصل لاختبارات فتاة من الطبقة الوسطى ، ودرس دقيق لعواطفها الكامنة في شكل سلسلة من الرسائل ، يصف فيها التجارب التي صادفت الفتاة ، والآلام التي قاستها ، وتنتهي الرواية بزواجها السعيد الموفق . ومن سيئات هذه القصة أنها طويلة مملة ، فهي في أربعة أجزاء ، ولولا أنها الثمرة الأولى للرواية لما كان لها شأن يذكر بالنسبة لروايات العصر الحديث . ولكنها صادفت نجاحاً كبيراً في ذلك العصر الذي وجد فيها تجديداً واختلافاً عما اعتاده من الأدب الجدلي الأخلاقي ؛ وقد وضعت في أسلوب تأثرى يحرك العواطف ويستفز الشعور ، وهذا ما يحبه الناس العاديون عادة . ألا تراهم يصفقون ويهتفون عندما يشاهدون الأفلام التي تستفز شعورهم ، وتثير حماسهم . أما الجدل العقلي الفلسفي فهو من اختصاص فريق خاص من الناس .

وهذا النجاح الذي صادفته رواية « باملا » شجع « ريتشارد سون » على تأليف رواية أخرى على نفس النمط في ثمانية أجزاء . ويرى فيها النقاد تحسناً عن سابقتها فالبطلة « كلارسا » فيها أقرب للواقع من

« باملا » ؛ وليس فيها ذلك التكلف الظاهر . أما وصفه للرجال فعتيم غير موفق لأنه لم يفهمهم بل ربما لم يحاول قط أن يفهمهم وقد حاول في رواية ثالثة أن يصف النزعات والأخلاق الأرستوقراطية ؛ وغرضه منها تعليمى تهذيبى ، فهو يعالج موضوعات اجتماعية ، ويبدى رأيه فى النواحي الأخلاقية الأدبية بطريقة جدلية ، مما يدل على أنه لم يكن قد تخلص بعد من أسلوب « جونسون » وأمثاله . وكل ما يمكن أن يعتبر جديداً فى أدب « ريتشر دسون » هو تلك النزعة العاطفية الجديدة ، والميل إلى جعل القصة وسيلة أدبية لتشويق الناس وتعليمهم .

« ب »

هنرى فيلدنج

١٧٥٤ — ١٧٠٧

بعد ظهور « باملا » بسنة واحدة ظهر كاتب لامع اسمه « هنرى فيلدنج » ولما رأى النجاح الأدبى الذى لاقته رواية « ريتشرد سون » عمد إلى وضع رواية هزلية فى قالب جدى يعارض فيها رواية زميله . وقد حاول فى بدء الرواية أن يبين الأخطاء التى وقع فيها « ريتشرد سون » فانتقد فيها شدة التكلف والتمادى فى الناحية العاطفية التى لا تنطبق على الحياة الإنسانية ؛ ورأى فيها تطرفا من ناحية التمسك بالفضائل التقليدية . واختار بطلا لروايته أخا « لباملا » عرضه لتجارب واختبارات من نفس النوع الذى تعرضت له « باملا » ، ولكنه بدلا من أن يجعل نتيجة اختبارات وفضائله سارة جعلها تنتهى بتشرده ، وبعد أن يتضح غرض الرواية ، بمعنى أنها تعارض رواية « ريتشرد سون » نجد الكاتب يتناسى الغرض الذى وضع الرواية من أجله ، ويندفع فى وصف اختبارات الفتى بطريقة واقعية ملائمة بالفكاهة والجدل ، صريحة إلى درجة الفظاظة والغلظة ، وهو لا يحاول الفلسفة والجدل بل الضحك والمرح .

وقد أتبع « فيلدنج » روايته هذه بعدة روايات أخرى . وأكثرها مجرد إعادة لما سبق بشيء من التغيير والتبديل هنا وهناك . وسيئات هذه الروايات أنها تكاد تكون جديدة خالية من الخيال الرائع ، متمادية في التمسك بالواقع غير الظريف ، ولكن الكاتب مخلص في رسالته يصف الأشخاص كما هم في الواقع بحسناتهم وسيئاتهم ، بأباطيلهم وترهاتهم ويعرضهم بدون أن يعلق عليهم ، أو أن يصدر أحكاماً صارمة على أعمالهم . ولعل هذا يعود إلى فلسفته بأنه هو وغيره لو وجدوا في ظروفهم لكان فيهم من الضعف ما فيهم . فهو يقسو في وصفهم ولكنه شديد العطف والشفقة عليهم .

وأسلوب « فيلدنج » الروائي هو خطوة جريئة في عالم الرواية . فقد ابتعد كثيراً عن أسلوب الجدل الممل ، وانتزع الرواية من سيطرة الآداب التقليدية ووجهها نحو الواقعية المجردة . وقد حاولت أخت « هنرى فيلدنج » أن تعالج الرواية ، فأنجبت رواية بطلها شخصية تتصف بالاستقامة والفضيلة ، وتصف ما لاقته في سبيل ذلك من صعوبات في الحياة . وقد مزجت العاطفة بالواقع بأسلوب غير موفق ؛ ولم تظهر فيها تلك المقدرة التي ظهرت في روايات أخيها ؛ ولم تترك أثراً يذكر في تطور الرواية وتكوينها .

سموليت وستيرن

١٧٢١ - ١٧٧١ * ١٧١٣ - ١٧٦٨

وقام عدد من الكتاب المعاصرين « لرتشرد سن » و « فيلدنج » بمحاولات ليأتوا بشيء جديد في الرواية فلم يفلحوا ؛ وكانوا مقلدين للمنشئين الأولين . ولكن هناك أدبيين أظهرنا شيئاً من التجديد وسنتحدث عنهما بكل اختصار . . الأول هو « توبياس سموليت » ، ورواياته جديدة في موضوعاتها إلا أنها خشنة في أسلوبها . وقد تجاوز الحد في وصف الواقع البشع القبيح إلى حد ينفر القارئ ويتعبه . أما موضوعاته فمنتزعة من اختبارات البحرية حيث كان يعمل كطبيب جراح ، ما عدا رواياته الأخيرة التي عمد فيها إلى وصف حياة عائلة في رحلة قامت بها في إنجلترا واسكوتلندا . وقد تأثر بالأدب الأسباني إلى حد ما ، فجعل بعض أبطال رواياته من نوع الأوغاد المتشردين . وناحية التجديد التي ظهرت في أدبه هي البراعة في وصف الشذوذ والانحراف في أخلاق الناس ، وهي ناحية هامة في الرواية نمت وتكاملت في روايات « ديكنز » فيما بعد . أما عدا هذه الناحية التي تقر به من العصر الرومانتيكي ، فكل ما فيه يدل على أنه كان لا يزال كلاسيكي النزعة ، فهو متخامل ، يغضب ويحاول ، وينتقد بتهمك ومرارة ، ورغم محاولاته لم يتوصل إلى الدرجة التي بلغها « فيلدنج » سواء في مادة الرواية أم في أسلوبها .

أما الروائي الثاني الذي يستحق الذكر بين الذين حاولوا تأليف الرواية فهو «لورنس ستيرن». و بمقدار ما كان «سمولت» خشناً قاسياً في وصفه للواقع ترى «ستيرن» يفيض شعوراً وأسى ورقة . ولقد سمي أسلوبه هذا بالأسلوب التأثري العاطفي ؛ ومعناه أن يعبر الكاتب عن خلجات قلبه وشعوره القوى الداخلي ، وهو شبيهه بأسلوب رسائل الحب والغرام والهيام الصادرة عن نفس هائمة مشتاقة إلى لقاء الحبيب ، أو بأسلوب الخطابة الشعبية التي تتلاعب بعواطف الجماهير .

ولم يكن غرض «ستيرن» تعليم الناس شيئاً أو إقناعهم بشيء ، بل غرضه أن يحرك عواطفهم ويسليهم ، وهو لا يريد أن يلقنهم الفكرة تلقيناً ، بل يريد أن يتحسسوها ويمزجوها بعواطفهم أولاً ، ثم إن أرادوا بعد ذلك قدموها هم أنفسهم للعقل كي يقرر رفضها أو قبولها . وتراه يستمر في الضرب على أوتار قلب القارئ إلى أن يشعر هو ويشعر القارئ بأنه اكتفى ، وأنه لم يعد هناك وسيلة للدفاع ، وعندها يقدم له ما من شأنه أن يهزه فجأة هزة نهائية عنيفة ، يعقبها تصريح صامت عميق بأن جميع ما قاله الكاتب صحيح ؛ فهو نوع من الأدب الخدر — إن صح هذا التعبير — ويكاد يكون نادراً أو مستحيلاً في عصرنا الحاضر بسبب نزعة الشك والاتجاه العلمى العنيف .

على أن قارئ أدب «ستيرن» يلحظ بين السطور تهكماً لاذعاً يخفيه وراء هذا الحجاب الصفيق من الشعور الرقيق .

هذا الأسلوب المرسل الحركان بدعة جديدة فى فن الرواية فى هذا القرن ، « وستيرن » لا يقلد فيه أحداً ولا ينهج منهج أحد ، مع العلم أنه تأثر بعدد من الكتاب الفرنسيين مثل « مونتين » « ورابلية » ؛ والأسبانيين مثل « سرفنتيس » صاحب رواية دون كيشوت المشهورة ، ولا شك بأنه تأثر بعدد من الكتاب الإنجليز فى عصره أيضاً . ولكن هذا التأثير لا يظهر واضحاً فى كتاباته ، لأنه أكسب جميع ما كتب حللاً جديدة كاد يختفى فيها كل أثر للآخرين . فروايته « ترستام شاندى » مثلاً وهى خلاصة حياة شخص وسرد لآرائه تنقصها الوحدة والانسجام ، ولا تستطيع مهما حاولت أن تعرف من أين اقتبسها أو مقدار المادة التى استعان بها من أدب غيره . فهو ينقلك من مشهد إلى مشهد ، ومن شخصية إلى أخرى ، ومن حادثة إلى حادثة بسرعة طاغية وازدحام فى الحوادث ويتركك فى هذه الفوضى وما يشبه الفوضى ، ولولا ما يتخللها من مزاج وفسكاهة من وقت إلى آخر لا أصبح جوها خانقاً .

أما كتابه الذى سماه « رحلة عاطفية » فليس رواية بالمعنى الصحيح وإنما هو مجموعة حوادث واختبارات صادفها الكاتب فى رحلته إلى فرنسا وإيطاليا ؛ يصف فيها إحساساته ومشاعره ويبنى حكمه فى أغلب الأحيان على حادثة واحدة شاهدها أو كلمة سمعها ؛ وقد يوفق أحياناً فى استنتاجاته السريعة ، فهو ينفذ أحياناً إلى أعماق الأمور بثاقب بصره ودقيق ملاحظته .

وأسلوبه أقرب إلى العصر الرومانتيكى ، بمعنى أنه حاول استخدام العاطفة والخيال فى أدبه أكثر من سابقه ، وحول الرواية من طور الواقعية القاسية التى تتركز على وصف ما تراه العين إلى ما يحس به القلب ، وحررها من القواعد التقليدية ووجهها نحو الحرية التى تعتبر حياة الإنسان الداخلية أتمن ما فى الوجود .

ورغم جهود هؤلاء الكتاب بقيت الرواية فى القرن الثامن عشر مشوشة مبلملة، إلى أن نشر «جولد سميث» رواية «قسيس ويكفيلد» فى أسلوب واضح بسيط ولغة خالية من التعقيد ، وقد أجمع النقاد على أنها خطوة جريئة فى عالم الرواية . . وغرض الكاتب فيها أن يصور البيت تصويراً دقيقاً — وخلاصة القصة أن قسيساً إنجليزياً اسمه دكتور برمرز كان يعيش مع عائلته فى بدء حياته فى هناءة وسعادة ، ولكن ما لبثت المصائب أن داهمته الواحدة تلو الأخرى ، ومع ذلك بقى صابراً أمام سلطة القدر العاتية ، ولم يفقد إيمانه بالله لحظة ، وهى تعكس لنا حياة «جولد سميث» الداخلية، فهو يعبر عن تفاؤل لا حد له ، وإيمان قوى برحمة الله وقدرته ، ويبدى آراء اجتماعية لا تصدر إلا عن نفس تنشد الإصلاح ، وإذا ما قابلناها بروايات «ريتشارد سون» و «فيلدينج» وغيرهما من كتاب الرواية فى هذا العصر نجدها أقل خشونة وموضوعها أشد طرافة ، وليس فيها ذلك الاندفاع العاطفى الجرد الذى اتصف به

أدب « سترن » . فهي من حيث الأسلوب والمادة مزيج متناسق من عدة اتجاهات وعناصر .

كان الأقدمون ولا سيما « البيوريتان » في القرن السابع عشر يعتبرون العاطفة مظهراً يجب كبحه في الإنسان ، أما « جولد سميث » فقد استخدم العاطفة في هذه الرواية وتناولها بالشرح والتفصيل ، فجاءت روايته أكثر إنسانية وبعيدة عن التكلف ، وفي هذا النوع من الكتابة يفسح المجال للدعابة والفكاهة التي تدخل السرور إلى نفس القارئ من القلب ، على أمل أن يصل إلى القلب بدون عناء أو مقاومة . على أن الكاتب لا يتأدى في اعتبار العاطفة كل شيء في كيان الإنسان ، بل تراه يخاطب العقل والإرادة أيضاً ، ويحاول أن يستخلص تعاليم من شأنها رفع مستوى الإنسان ؛ فهو يبحث على الفضيلة ويرسم قواعد للأخلاق ، وفي هذه الناحية يظهر تأثير « جونسون » عليه . وهذه الرواية هي الأولى من نوعها في الأدب الإنجليزي ، من حيث إنها تتناول حياة الأسرة بالدرس والتحليل . وقد كانت الحاجة الخلقية تدعو إليها في المجتمع الإنجليزي في ذلك الوقت ، والمؤلف لا ينقصه الخيال في هذه الرواية لأنه شاعر بالفطرة ، فهو يتصور حوادث غريبة الوقوع ، ويحبك هذه الحوادث بطريقة تتلاءم والهدف الذي يرمى إليه في قصته .

ومهما يكن فيها من نقص ، من حيث إنها لم تتحرر بالكلية من المزايا الكلاسيكية كالتكلف ، والإسراع في الحكم ، والنظر إلى الأمور من

ناحية واحدة — فقد جعل المؤلف بطل الرواية قديساً أو ما يشبه القديس، مخالفاً في ذلك سنن الطبيعة الإنسانية، وصوره رجلاً لا وجود له على هذه الأرض، وفرض عليه ظروفًا نادرة الوقوع في الحياة العملية مستخلصاً من ذلك كله قاعدة أدبية، هي أن سلوك الرجل الصالح لا بد أن يرغم القدر على تسوية أموره في النهاية، وليس من حقه أن ينتظر مكافأة على أعماله الصالحة في هذه الدنيا — أقول رغم هذه النقائص في الرواية، فإن تأثيرها كان شديداً على كتاب القرن التاسع عشر مثل «ديكنز» و«شكسبير» و«جين أوستن» و«سيرولترسكوت».

١ — مميزات الشعر

في القرن الثامن عشر

لا يختلف شعر القرن الثامن عشر عن نثره في اتجاهاته ونزعاته ، ولولا الوزن والقافية لما كنت تميز الكثير منه من النثر . وجميع ما قلناه عن النثر في فصل سابق ينطبق على الشعر أيضاً . فهو يميل إلى التهمك والانتقاد والجدل ، وعامل الخيال فيه ضعيف جداً ، وليس فيه شعور أو حماس عنيف .

ويمتاز شعر النصف الأول من القرن الثامن عشر بحسن السبك ودقة التعبير . وقد بلغ اهتمام الشعراء باللفظ والعبارة حد الإفراط ، فجاء شعرهم مصطنعاً غير طبيعي بعيداً عن الرقة والظرف . وعالجوا بالشعر موضوعات تلائم بطبيعتها النثر أكثر من الشعر ، كأن يتناول الشاعر حياة الإنسان بالشرح والتحليل ، أو يعتمد إلى البحث والجدل في الأسس الأدبية والأخلاقية التي يعتقد بها ، أو يستعرض مظاهر الحياة الاجتماعية كالقمار والحفلات والعلاقات بين الناس ؛ مبيناً سيئاتها بتهمك أو سخط ، ولا يحاول أن يسكب عليها شيئاً من روحه وشاعريته .

وقد مزجوا الشعر بالسياسة وعمدوا إلى نقدها بالشعر . فملّ الناس هذا النوع من الشعر وأصبحوا يفضلون قراءة النثر عليه .

وهذه النزعة في الشعر ، ولا سيما في أوائل القرن تعود في أصلها إلى القرن السابع عشر . ففي هذا القرن الذى يمثله الشاعر « درايدن » كان الأدب يجتاز دوراً من أدق أدواره وأشدّها خطورة . فقد حاول فيه الأدباء أن يوجهوا اللغة الإنجليزية توجيهاً صحيحاً ، وأن يقضوا على تلك الفوضى في استعمال المفردات والألفاظ في القرن السادس عشر . ففي سنة ١٦٢٣ نشر معجم للغة الإنجليزية حاول واضعوه أن يجمعوا فيه الألفاظ التى اعتبروها موافقة لروح العصر . وأدخلوا عدداً كبيراً من الكلمات والتعابير الفرنسية التى اعتبروها أرق وأجمل من بعض الألفاظ الإنجليزية ؛ ويصف أحد النقاد هذه النزعة بقوله « إن أدباء القرن السابع عشر حولوا اللغة الإنجليزية إلى لغة فرنسية ؛ بدلاً من أن يستعينوا بها لتحسين اللغة الإنجليزية » . ومع ما فى هذا القول من مبالغة ، فالواقع هو أنّ إدخال الألفاظ الفرنسية كان شديد الأثر في تطور اللغة الإنجليزية في ذلك العصر . وكان اهتمام الكتاب بالناحية اللغوية وجودة التعبير على حساب العاطفة تكملة لما قام به الأدباء في القرن الذى سبقه .

وقد ساعدت حوادث القرن الثامن عشر على تكوين الشعر بالشكل الذى وصفناه ؛ فمن الناحية السياسية كان النزاع بين الحزبين الكبيرين «الوجز والطورى» على أشده ، وكان لا بد للشعراء أن يعالجوا هذه

الناحية بشعرهم . ومن الناحية الفكرية كان العصر ينزع نزعة عقلية مشبعة بمبادئ « جون لوك » و « كولنس » و « تندل » و « هيوم » وغيرهم من الفلاسفة ؛ ومن الناحية الدينية كانت نزعة الشك قد بدأت تعمل عملها في العقول ، وهذا أدى إلى مجادلات عنيفة في المعتقدات والآراء الموروثة ، دون الاهتمام الفعلي بالحياة الروحية اليومية . ولم يكن الغرض من هذه المجادلات تحسين حال الأفراد ، بل السيطرة والنفوذ والتغلب على الخصم . فكيف لا يكون الشعر متكلفاً كما وصفناه إذا ما حاول أن ينصر مذهباً ضد مذهب أو فريقاً ضد فريق ؟ ومن ناحية العلم جاءت أبحاث « إسحق نيوتن » فمهدت السبيل لكشوف جديدة في الرياضيات والفلك ، ثم أبحاث « هنرى كفنديش » في الكيمياء والطبيعة وكان لها بعض الأثر في الكشف عن حقائق الحياة . ولكن طغيان أساليب الحياة السياسية والاجتماعية حدد من نفعها ، وأرجأ نتائجها إلى ما بعد القرن الثامن عشر . أما في الاقتصاد فقد كان لكتاب « ثروة الأمم » « لأدم سميث » أثر بعيد في تطور الفكر الاقتصادي في ذلك الوقت . وأخيراً جاءت الثورة الصناعية في منتصف هذا القرن بتحسيناتها ومخترعاتها التي أدت إلى انقلاب هائل في أواخر القرن .

جميع هذه التطورات العقلية والمادية كان لا بد أن تجعل من الشعر خادماً ، وأن تشرکه في هذا النزاع العنيف ، وأن تتخذ وسيلة للتعبير

عن هذا الظرف الدقيق الذي كانت تجتازه البلاد ، فلقد كانت الأحوال العامة سيئة ومشروعات الإصلاح ضيقة ، والتعليم يكاد يكون مقتصراً على الطبقة الأرستوقراطية ، وحالة الأمن والسجون مخزية ، ولم تكن هذه الحوادث والتطورات التي ذكرنا سوى محاولات لرفع مستوى الحياة ؛ ولكن تأثيرها لم يصبح شيئاً ملموساً إلا بعد قرن أو أكثر من قرن .

٢ — ألكساندر بوب

١٦٨٨ — ١٧٤٤

قلنا فيما سبق إن الشعر في القرن الثامن عشر كان متجهاً نحو التهمك والجدل والنقد ، والاهتمام باللفظ والعبارة على حساب العاطفة والخيال ، وزعيم هذه الطريقة وهذا الاتجاه هو « ألكساندر بوب » ذلك الشاعر الساخر الهازي الذي سيطر على الشعر ووجهه نحواً أكثر من نصف قرن في حياته ، واستمر يؤثر على الشعراء عدة سنين بعد وفاته .

ولد « ألكساندر بوب » في لندن سنة ١٦٨٨ من أبوين كاثوليكين ، ولم ينل من التعليم المدرسي سوى القليل . ولكنه عوض من ذلك بمتابعته القراءة والدرس ، وقد بدأ يكتب الشعر في سن مبكرة ، وهو الوحيد بين الشعراء والكتّاب الذي كرس حياته للأدب وعاش منه عيشة سعة ورخاء ، إذ أن أكثر الأدباء المشهورين في ذلك الزمن كما رأينا — كانوا إما يشغلون مركزاً في الحكومة أو الكنيسة ، أو يتقاضون معاشاً بالإضافة إلى ما يحصلونه من أدبهم . ولا يخبرنا التاريخ بأن « بوب » كان في حاجة ماسة إلى المال في يوم من أيام حياته . ومن هذا نستنتج أن الإقبال على مطالعة أدبه كان عظيماً . فترجمته « لهومر » مثلاً مكنته من شراء بيت تحيط به حديقة واسعة جميلة في « توكنهام »

على نهر التايمز . ولم يكن مضطراً إلى مداهنة الأغنياء وأصحاب النفوذ كما فعل غيره من الشعراء والكتاب .

كان « بوب » يدعى أن معلمه الأكبر هو « درايدن » شاعر القرن السابع عشر . على أننا نلاحظ في أدبه أثر بعض الشعراء والكتاب الفرنسيين مثل « بوالو » « وفولتير » . وقد صرح « فولتير » بأنه يعد « بوب » أعظم شاعر في إنجلترا ، بل أعظم شاعر في العالم ؛ ومع ما في هذا القول من مبالغة ظاهرة ، إلا أنه يعكس لنا سوء حال الشعر في إنجلترا وفي العالم في ذلك الوقت . ويبدو أيضاً أن بعض شعراء أوربا اتخذوا « بوب » نموذجاً لهم كما فعل شعراء إنجلترا . وقد جمع « بوب » في شعره جميع مزايا الأدب في ذلك العصر . فأصبح لا يستغنى عنه في درس تاريخ نزعات العصر الأدبية . فهو يصور لنا المعتقدات والعادات والنزعات الفكرية تصويراً واضحاً . ورغم نقائصه التي هي في الحقيقة نقائص العصر نجد في شعره مادة غزيرة ومعلومات وافرة تساعدنا على فهم حياة الناس في ذلك العصر .

كتب « بوب » شعراً وافراً ، وأكثره لو كتب نترأ لما فقد قيمته ، بل ربما كان أجمل وأكثر وضوحاً . فقصيدته التي سماها بحق « مقالة في النقد » التي يلخص فيها طريقة « هوراس » الروماني ثم « بوالو » وغيره من نقاد القرن الثامن عشر إنما هي مجموعة قواعد وأسس للنقد ، كان الأفضل شرحها وتوضيحها بالثرأ أكثر من الشعر ، ووزنها بسيط

وقايفتها تشبه قافية الأرجوزة في العربية . وقد أصبحت بعض أقواله فيها تجرى مجرى الأمثال أو يستشهد بها أنها قواعد ثابتة في الأدب والحياة بدون شك أو تحقيق . فمنها قوله « العلم القليل خطر عظيم » « الخطأ من طبيعة البشر ، والعفو من طبيعة السماء » ، « يندفع الأغبياء حيث يخاف الملائكة أن يضعوا أقدامهم » .

وهناك مقال آخر عن الإنسان ، وغرض الشاعر فيه حسب تعبيره أن يشرح علاقة الله بالإنسان ، ويحاول في هذه القصيدة أن يميح في موضوعات كثيرة يستخلص منها أن كل ما في الطبيعة سواء أدركه الإنسان أم لم يدركه — مادام هو موجوداً — فهو حقيقة ، وأن الإنسان لا يمكن أن يدرك حقيقة الله إلا إذا فهم نفسه وعرفها ، وأن السعادة لا تكون إلا بتجنب الشر وبمحاولة الإنسان أن يقوم بالواجب الذي خلق من أجله . ويصور الشاعر الأدوار التي يمر بها الإنسان منذ طفولته ، ففي صغره يتلهى بألعاب الطفولة وعند ما يكبر يتطور نوع لهوه ؛ ويستمر يتنقل من لهو إلى لهو ومن عبث إلى عبث إلى أن يتعب فينام نومه الأخير ، وينسدل ستار مسرح الحياة على ألعابه جميعها . ويبدو « بوب » في هذه القصيدة وغيرها غنيداً مستبدداً برأيه لا يشك ولا يتردد ؛ وكأنه يدعى المقدرة بأنه يستطيع الإجابة عن كل موضوع مهما كان خفياً غامضاً . وهي صفة بارزة من صفات أدب هذا العصر أدت بالأدباء إلى مجادلات عنيفة ، ونقد لاذع ، وتعصب لا يستند إلى

شئ من الحرية والتسامح ، وقد عرف هذا النوع من التفكير بمذهب اليقين الذي لا تزال آثاره باقية إلى اليوم رغم تقدم العلم والمحاولات الكثيرة لتحرير الفكر .

ومن أحسن ما كتب « بوب » قطعة شعرية مبتكرة اسمها « اغتصاب خصلة الشعر » وموضوعها يدور حول حادثة تافهة في قصر الملكة ، خلاصتها أن أحد اللوردات واسمها « بيتر » قص خصلة شعر من جدائل وصيفة جميلة في القصر اسمها « أزابلا » فخنقت الصبية ، واشتبكت العائلتان في نزاع طويل أصبح حديث الناس في لندن مدة من الزمن . وفي هذه القصيدة يصور الشاعر أخلاق المجتمع الإنجليزي وعاداته في ذلك الوقت ، ويصفه وصفاً دقيقاً بأسلوب تهكمي لاذع . ويظهر في هذه القطعة تأثير الكاتب الفرنسي « بوالو » في قصته المشهورة واسمها « منبر القراءة » ، التي يسخر فيها من نزاع قام بين الكهنة الفرنسيين على شئ تافه ، هو أين يضعون منبر قراءة الكتاب المقدس في الكنيسة ؛ وقصة أخرى لكاتب إيطالي عنوانها « الدوق المسروق » ، وهي نقد للأسباب التافهة التي أدت إلى الحروب الإيطالية الطويلة الأمد . ولقد أعجب الجمهور بقصيدة « بوب » وأقبل على مطالعتها ، وهي لا تزال تقرأ إلى اليوم باعتبار أنها قصة شائقة مسلية ، ولأنها تعرض مزايا العصر الذي كتبت فيه . ويعتبر « بوب » مجدداً في الشعر القصصي لأنه أدخل في هذه القصة عناصر لم تكن توجد فيها قبلاً ؛ ولأول مرة أدخل في القصة

الشعرية القزم والعفريت والجن والحيوانات الخرافية بدلا من الآلهة التي كان القراء قد اعتادوها وملوا أخبارها ، ورغم التصنع الذي فيها تجد فيها معلومات لا تجدها في غيرها من القطع الأدبية . ففيها وصف لألعاب الورق والحفلات والكلاب المدللة وشرب الشاي وشم السعوط ، وكثير من مظاهر حياة الكسل والفراغ في ذلك الوقت .

وقد ترجم « بوب » الإلياذة بأكملها وجزءاً كبيراً من الأوديسة لهوميروس ؛ وقد لاقت رواجاً عظيماً في ذلك الوقت ، على أن الترجمة لم تكن موفقة لأنها تعكس لنا القرن الثامن عشر وأساليبه أكثر مما تعكس لنا مزايا الإلياذة والأوديسة . وقد قال العلامة « بنتلي » لبوب في ذلك الوقت : « إنها قصيدة جميلة يا مستر بوب ، ولكن أنصحك بأن لا تنسبها لهوميروس » ولقد أتم ترجمة قسم الأوديسة الذي لم يتمه « بوب » عالمان من كمبردج مقلدين أسلوب « بوب » إلى حد يصعب على القارئ أن يميزه من أسلوب « بوب » نفسه .

ولعل أحسن قصيدة تظهر فيها براعة « بوب » في النقد هي القطعة التي سماها « دانسياد » ، وهي عبارة عن مهاجمة لعدد من الأدباء الذين أثاروا غضب « بوب » بانتقادهم شعره وأسلوبه . بدأ النزاع حول مؤلفات شكسبير ، ولكن « بوب » تجاوز الموضوع وأخذ يطعن في زملائه وبين معايهم في كراهية وانتقام . وهي صبغة لازمت هذا الشاعر الكبير طيلة حياته . فهو لا يقبل نقداً من أحد ؛ ويعتبر رأيه في

نفسه القول الفصل . ومن المؤسف حقاً أن تكون عوامل الغرور والحقد قد مازجت أدب هذا الشاعر الكبير . ولا بد أن سوء صحته وصغر خلقته وعيوب جسمه أثرت كثيراً في تكوين خلقه وحدة مزاجه . وكان في كثير من الأحيان لا يستطيع البت في أموره الشخصية ، فيستند إلى أحكام أصدقائه مثل « سوفت » و « أديسون » و « بلنجبروك » الذين كانوا يؤثرون عليه في أزماته النفسية ويزيدونه تعنتاً وإثارة ، زد على ذلك ميله الطبيعي للمشاجرة والخصام مع من يخالفونه في الرأي والمذهب ، حتى إنه كثيراً ما تشاجر مع أصدقائه وخطأته لأسباب تافهة . ولربوب قصائد أخرى كثيرة غير التي ذكرناها ، منها قصيدة « الويزا إلى إبلارد » وهي تقرب في أسلوبها إلى حد من الأسلوب الرومانتيكي بسبب العاطفة الغرامية التي فيها . وخلاصة القصة أن عالماً شهيراً اسمه « ابلارد » عاش في القرن الثاني عشر عشق تلميذته وتبادلا الحب . ولما عزمَا على الزواج حال دونه عم الفتاة ، فقررا دخول الدير ، والقصيدة تستند إلى مجموعة من الرسائل كان الحبيبان يتبادلانها في ذلك الوقت . وقصيدة أخرى سماها « رسالة إلى الدكتور آر بوثنت » وهي عبارة عن مهاجمة بقالب تهكمي لأعداء الشاعر ، وفيها دفاع عن نفسه ودرس لأخلاقه كما كان يراها . والدكتور « آر بوثنت » كان في ذلك الوقت طبيب الملكة « حنة » الخاص وصديقاً حميماً لبوب . وقد كتب « بوب » عدة رسائل لأصدقائه حفظت ونشرت وهي تساعد على فهم عقليته رغم

ما فيها من تصنع ونفاق ؛ ولكنها أخف حدة من قصائده وتعبر عن عاطفة يندر وجودها في شعره ، ويعتقد الأستاذ كرميان أن ما كتبه « بوب » من الشعر في صباه هو أحسن ما كتب ، مثل قصائده الريفية وقصيدته « غاية وبنستر » لأنها تعبر عن عواطف وخواطر أصدق من التي كتبها فيما بعد ، وفيها روعة وجمال خاص .

نستخلص مما تقدم أن « بوب » كان ينزع في شعره نزعة كلاسيكية خالصة . فهو يتطلب السكال في دقة التعبير ومتانة النظم ، ويسخر الشعر للتهكم والجدل والخصومة ؛ ويرى في معتقداته وأحكامه مثلاً أعلى لا يقبل عنه بديلاً ، ورغم نقائصه فهو غزير المادة متعدد النواحي واسع الاطلاع ؛ وكان مندفعاً كل الاندفاع للعمل والإنتاج ، لا يتعمق فيما يكتب ولا يحاسب نفسه طويلاً ؛ ولا يجد الشك إليه سبيلاً . ولا بد من الاعتراف أنه كان ذكياً مفرط الذكاء ، وله نظرات في الحياة صائبة ، وأسلوبه سهل واضح في أكثر الأحيان . وقد وصف أحد النقاد أسلوبه بقوله إنه أسلوب براق مصقول ، ولكنه بارد كالقولاذ . أى أنه جميل العبارة حسن السبك ، ولكنه خال من العاطفة الحارة والشعور الفياض . ولعل شعوره بالحطة والضعف من الناحية الجسمية كان من أهم الأسباب لمحاولته التفوق على أقرانه في الدقة والمبالغة في الظهور ، وأن يكون على استعداد دائم للتخاضم والدفاع عن النفس .

٣ — توماس جرای

١٧١٦ — ١٧٧١

تحدثنا في الفصل السابق عن « ألكساندر بوب » وقلنا إنه يمثل النزعة الرجعية المتطرفة في الشعر في القرن الثامن عشر . وفي هذا الفصل والفصول التي تليه سنتحدث عن أربعة من الشعراء الكبار الذين بدأوا حركة جديدة في الشعر ، وكانوا صلة الوصل بين المذهب الكلاسيكي في أوائل القرن الثامن عشر والمذهب الرومانتيكي في القرن التاسع عشر .

ولهذا كان من المناسب أن نلخص مبادئ الحركة الرومانتيكية بإيجاز هنا ؛ كي نستطيع أن نلاحظ مقدار اقتراب هؤلاء الشعراء أو ابتعادهم عن هذه الحركة ، ونقدر بوجه عام درجة تأثيرهم في انتزاع الشعر من قيود « بوب » اللغوية وتصنعه اللفظي ؛ وتوجيهه إلى شعر عاطفي صادر من القلب .

وأول ما يلفت نظرنا في الشعر الرومانتيكي هو المحاولة للتحرر من قيود اللغة والنظم التي سادت القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وهذا التحرر جاء كنتيجة لتغيير وجهة النظر ، وأصبح الشعراء يعتقدون بأن الشعر هو شعور ، وأن الشاعر لا يستطيع أن يستمع

لنبضات قلبه وأن يعبر عن دخائل نفسه إذا هو أرغم على اتباع قواعد جامدة وطرق معينة ، وإن كان لا بد من وجود أوزان وقواف للشعر فخرى بالشاعر أن يكون حر التصرف في اختيارها بالنسبة للموضوع الذى يكتب فيه . وكان القراء قد ملوا مواضيع الشعر القديمة التى كانت تميل إلى شرح قواعد الأخلاق والجدل العقلى الفلسفى ، وأدرك الشعراء ببصائرهم أن خير مصدر للشعر هو الطبيعة والإحساسات البشرية الداخلية ، ووجدوا فى قصص الأبطال ، وروايات الحب التى ورثوها عن القرون الوسطى مادة ملائمة للشعر ، ونظر الشعراء حولهم وعجبوا كيف أن زملاءهم فى القرن السابق قد أهملوا حياة البسطاء من الناس ، وعاشوا محلقين فى سماء نظرياتهم غير عابئين بما هو أمام عيونهم ، وتحركت قلوبهم شفقة على أولئك الفقراء المساكين الذين يكبدون ويتألمون فى سبيل الحصول على اليسير من الرزق ، وأحسوا فى أعماق قلوبهم أن فى ساكن الكوخ الحقير مواهب ، بل قد تكون فيه احتمالات أعظم للنموغ من أولئك الذين ساعدتهم الحظ بأن يصبحوا عظماء معروفين .

وفتشوا الكتب فوجدوا فى منتوجات القرن السادس عشر ، أى عصر الملكة « أليصابات » تفوقاً ونبوغاً أكثر من العصر الذى يعيشون فيه فحدوا عن « درايدن » و « بوب » وعادوا إلى « شكسبير » « وملتون » ، وتساءلوا عن حقيقة الحياة فوجدوها فى بساطة العيش

والابتعاد عن زخارف الحياة ، وحاولوا أن ينفذوا ببصائرهم إلى دخائل الحياة وأن لا يكتفوا بقشورها وظواهرها .

وأحد الشعراء الأربعة الذين اخترنا التحدث عنهم لأنهم يمثلون بعض نواحي هذه النزعة ويظهر في شعرهم كثير من الشذوذ عن الطريقة الكلاسيكية هو « توماس جراى » .

كان هذا الشاعر أكثر شعراء عصره علماً وأشدهم دقة وعناية بالأسلوب واللغة ، وقد شغل مركز أستاذ للتاريخ الحديث واللغات لمدة من الزمن فى جامعة كمبردج ، وشعره يدل على علم وافر واتزان فى الفكر لا نجده فى شعر زملائه حتى النابغين منهم . ولا يزال النقاد يعدونه أعظم شاعر نبغ فى ذلك الوقت .

يعكس لنا شعرُ النصف الثانى من القرن الثامن عشر حزناً وكآبة ؛ ويكاد يكون خالياً من المرح والفكاهة ، وهذه الكآبة تظهر واضحة فى شعر « جراى » ، ولكنها من النوع الذى يزيد شعره جمالاً ، ويثير فىنا الرغبة والفضول لمعرفة أسبابها والدافع لها . وهو واقعى فى حزنه وكآبته متأثر مما يشاهده فى حياة البشر من أوجاع وآلام ، فاسمعه يقول مثلاً فى إحدى قصائده .

« لكل فى الناس آلامه ، ولقد حكم على جميع الناس أن يتوجعوا ترى ذوى الشفقة منهم يتألمون إذ يرون الناس متألمين ، وقساة القلوب يئنون من آلام أنفسهم

والأسفى عليهم! . ما نفع معرفتهم لمصيرهم ؟ .

ما دام الحزن دوما فى نفوسهم

والسعادة لا تستقر طويلا فى قلوبهم

فى الفكر فقدان الطمأنينة . ألا كفى ضلالا

إن كان فى الجهل هناء ، فمن الحمق أن تكون حكيما ... »

ولعل أسباب هذه الكآبة فى شعر «جراى» تعود فى الأغلب إلى الآلام

التي قاساها فى صباه ؛ فهو الابن الثانى عشر لوالديه وقد مات إخوته

جميعهم وبقى هو يتألم من الوحدة ؛ زد على ذلك ما كان يعانىه من

ضعف فى صحته . أما حياته البيتية فلم تكن سعيدة لأن معاملة والده له

ولأمه كانت أوتوقراطية قاسية . وقد انفصل الزوجان لخلاف شديد

وقع بينهما ؛ فتركت هذه الحوادث فى نفسه حزنا ومرارة . وبقى هذا

الحزن يلازمه طيلة حياته . ولم تكن تعجبه دروس الجامعة ونظامها ؛

وكان يتأفف من حياة الكسل التي كان يشاهدها فيها . فأقبل على

المطالبة الحرة بإقبال النهم الجائع على الطعام ، وحصل ثروة علمية وافرة

انعكست فى شعره حتى أصبح يعرف بالشاعر العالم . وقد أثرت هذه

النزعة العلمية فى نظره للحياة . فعمق تفكيره ورق شعوره وبعد نظره .

فجاء شعره متزنا خاليا من الغرور والفسفسطة ، وأصبح يتأثر من مناظر

شعرية لم يكن يعبأ بها أدباء العصر وشعراؤه ، ونستطيع أن نقدم مثلا

على هذا ما كتبه فى إحدى رسائله عن سفرته لجبال الألب يقول :

« لم تقع عيني على جرف أو سيل أو صقع جبل إلا رأيتُه مفعماً بالدين والشعر معاً » وهذا التأثير بالمناظر الطبيعية هو أول الدلائل على إشراق نور جديد في نفوس الشعراء ، وشتان بين هذا الشعور وشعور أديسون مثلاً قبل عشرين سنة عندما اجتاز جبال الألب فهو يقول « إنها لسفرة مزعجة جداً . إنك لا تستطيع أن تتصور مقدار سروري بالعودة لمشاهدة السهل » .

ومما يساعد على فهم نفسية « جرای » أن نقرأ مجموعة رسائله ويوميياته التي نشرت بعد موته ببضع سنوات ؛ وإذا كنا ممن يقدرُونَ الكتاب والشعراء بكثرة إنتاجهم ، فشاعرنا ليس منهم ، لأنه لم يخلف لنا سوى مجموعة صغيرة من القصائد . ومن هذا الديوان الشعري الصغير يجب أن نستمد حكماً عليه . وهذه ظاهرة أخرى تبعده عن الشعراء الكلاسيكيين مثل « بوب » ، فهو لم يعن بالشعر بقصد التظاهر والشهرة ، ولم يكن ينافس أقرانه في سبيل الاستزادة من الثروة والجاه ، إنما كان غرضه الوحيد التعبير عن عواطف كامنة في صدره حسب سمنوح الفرص .

أما قصائده التي كتبها في صباه فأقرب إلى النزعة الكلاسيكية ، فهي قصائد حزينة متكلفة في بعض النواحي ، وتعكس لنا نفساً تتعشق الطبيعة ولكنها لا تتغلغل في أعماقها ، ولا تتأمل طويلاً في جمالها وحقيقتها . بل تتخذها أساساً ووسيلة للتعبير عن عواطف بشرية ، وفي الحق هي مجموعة خطرات فكرية نظمت شعراً ، ولا تختلف كثيراً

عن بعض قصائد « بوب » التي سما بها عن مستوى الجدل الرخيص والدفاع عن النفس .

على أن قصائده المتأخرة ، وأشهرها تلك المراثية التي يعدها النقاد من أحسن القصائد الإنجليزية التي من نوعها في أي زمان ، وأغانيه البندارية (بندار شاعر يوناني ذو أسلوب غنائي ممتاز عاش في القرن الخامس ق.م.) وغيرها ، تدل دلالة واضحة على أن الشعر بدأ يتجه اتجاهها جديداً ، وأخذ يستقل عن الأساليب القديمة ، ولا بد من الافتراض بأن تأثير « جان جاك روسو » المعاصر لهؤلاء الشعراء المجددين كان شديداً عليهم .

فقد استطاع هذا الرجل الغريب الأطوار في نحو نصف قرن أن يحول مجرى الفكر ويوجهه إلى الثورة على التقاليد وعلى كل قديم بال ؛ وقد قرأه مفكرو الإنجليز وأعجبوا بآرائه ، ومنذ هذا الوقت نلاحظ أن الأدب الإنجليزي أخذ يتجه نحو التحرر من القيود والعودة إلى البساطة وإلى احترام الفرد وحقوقه وعواطفه . ففي قصيدة لجراي مثلاً عنوانها « الشاعر » نجد قصة أو شبه قصة ، خلاصتها أن شاعراً هو آخر شعراء « ويلز » المغنيين — يوقف الملك إدورد وحاشيته في مكان ما ، وينبئه في سخط وغضب بما سيجل به من الهول والعذاب جزاء له على طغيانه . ويستهل قصيدته بقوله « لسوف ينزل بك الدمار أيها الملك القاسي » ، ويتغنى الشاعر « جراي » ببطولة هذا المغني ، ولا يخفى إعجابه به . والفرق بين روح هذه القصيدة وروح بعض القصائد في أوائل العصر الذي كان

التزلف للكبراء والتقرب إليهم يعتبر عملاً مشروعاً لازماً — إنما يدل على خطوة جريئة وتطور جديد في وجهة النظر عند أدباء ذلك العصر . وقد أظهر جرای ميلا إلى قصص الأبطال والأساطير الترويحية القديمة ونظم فيها قصائد جميلة ؛ وباتجاهه هذا لفت نظر الآخرين إلى تلك الثروة الأدبية الهائلة التي تمكن الاستفادة منها إذا ما حاول الأدباء العودة للقديم واكتشاف ما هو صالح فيه .

نستخلص مما تقدم أن الشعر الذي مثله «جرای» وغيره من الشعراء في فترة الانتقال هذه هو شعر متعدد النواحي . يحاول التغلّت من قيود الأدب الكلاسيكي ، وينزع نزعة حرة في موضوعاته المبتكرة وأساليبه المتنوعة . أما علاقته بالشعر الكلاسيكي من حيث الصنعة والدقة في النظم فلا تخفى على من يدقق النظر ويحاول أن يقرأ ما بين السطور ، ولكنها علاقة واهية على كل حال ، وتبدو كأنها في حاجة إلى نفخة واحدة كي تطير .

وفيما يلي قطعة من مرثاته الشهيرة تبين وجهة نظره في الحياة وهي وجهة نظر رومانتيكية ؛ بمعنى أنها تعنى ببسطاء الناس وتعطف عليهم . يقول الشاعر :

« لا تستبعد أن يكون بين الراقدين في هذه البقعة المهمة .

قلوب كانت في يوم من الأيام بنيران السماء مفعمة .

وأيد — لو ساعدها الحظ — لقبضت على ناصية الحكم في البلاد

أو أحييت بنغماتها موسيقى الحياة .
 ولكن المعرفة أثبت أن تطلعهم على كنوزها .
 وشاء الفقر أن يسلط أشعته الباردة على حماسة قلوبهم .
 وأن يجمد سيل الحياة المتدفق في نفوسهم .
 كم من أولوة فاقت سواها نقاوة وجمالاً .
 استقرت في عمق البحر مغمورة بالمياه .
 وكم من زهرة عاشت عن الأنظار بعيدة .
 وشاء الحظ أن تذبل دون أن تنعش القلوب الحزينة . »

هذه هي الفكرة الأساسية في « المراثاة » فهي تنصرف للضعفاء وتدافع عنهم وتحزن لمصائبهم . ولا تقل الكتابة التي فيها عن تلك التي تمجلى في شعر « أبي العتاهية » ، فهي وقفة أمام القبور وصرخة بأن جميع ما في الحياة باطل ما دام هو يؤدي إلى الموت والفناء .

ونجمل القول بأن شعر « جرای » هو نزاع بين الكلاسيكية المتطرفة والرومانتيكية الجديدة ؛ نراه يميل إلى الزخرفة اللغوية والتدقيق في الناحية اللفظية ؛ وفي الوقت نفسه يحاول التحرر من سيطرة العقل المجرد متجهاً نحو كل ما يفسح المجال للتعبير عن العاطفة والإحساس البشري العميق .

٤ — ولیم کوبر

١٧٣١ — ١٨٠٠

نلاحظ في هذا الشاعر تقدماً محسوساً نحو الرومانتيكية يتجاوز الحدود التي بلغها «توماس جراي». بدأ «وليم كوبر» حياته الفنية كغيره من الشعراء لا يرى سوى الأساليب الكلاسيكية في الشعر، ولكن مزاجه الحساس وطبيعته المبتكرة لم تسمح له بالسير في هذه الخطة طويلاً. ففي قصائده المتأخرة نراه ينظم الشعر غير المقفى بغير تردد أو وجل، ويستمد موضوعاته من الطبيعة والحياة اليومية العادية، ويميل إلى وصف الأشخاص ذوي المراكز الاجتماعية البسيطة كموزع البريد والعامل الصغير. وأطلق لنفسه العنان في هذه الناحية حتى أصبح يعتبر بحق من أهم واضعي أسس رومانتيكية القرن التاسع عشر.

غريب أمر هذا الشاعر، فهو رغم نبوغه من ناحية الفن كان ضعيف الإرادة شديد الخجل، ويسود حياته نوع من الكآبة هي أقرب إلى الجنون وعدم الاتزان العقلي. وقد تعود هذه الرقة التي نلاحظها في شعره إلى مزاجه المرهف الحساس؛ فهو يخاف من الحياة، ويرتعد لذكر الموت،

ولم يكن يجد له ملجأ سوى نفسه يتحدث إليها ويثبها شكواه .
وقد كان لحياته البيتية أثر في تكوين مزاجه . توفيت والدته وهو
صغير ، فأهمل أمر تربيته . أما حياته المدرسية فكانت سلسلة من
العذاب والخاوف من بعض الرفاق الذين اغتتموا فرصة ضعفه وجبنه
كي يظهروا تفوقهم الجسمي عليه ، وقد أثر هذا الاختبار على صحته
العقلية والجسمية ، وهو يصف آلامه هذه في قصيدة سماها « استعراض
للمدارس » . وبعد خروجه من المدرسة قضى في درس القانون عدة سنوات
وعندما جاء وقت الامتحان خاف واضطرب إلى حد أدى به إلى دخول
مستشفى للأمراض العقلية حيث قضى ثمانية عشر شهراً . وبعد موت
أبيه أصابه من الإرث ما ضمن له معيشته ، ولولا ذلك لقاسى من ألم
الفقر أضعاف ما قاساه « جولد سميث » وغيره من الأدباء ، لأنه لم يكن يصلح
لشيء على ما يظهر سوى نظم الشعر . وكان قد تعرف بعائلة مثقفة متوسطة
الحال اسمها عائلة أنوين . فأحبه أفراد العائلة وقدروا مواهبه ونبوغه ،
ولا سيما أنه كان يستطيع أن يكون فرحاً فكهما في بعض الأحيان عندما
يجد الجو ملائماً ، وقد عومل في هذا البيت كابن من أبنائه وقد ذكر
ذلك في بعض قصائده .

وكان تفكيره الديني مشوشاً . ومما زاده ارتباكاً معاشرته لقسيس متحمس
اسمه « جون نيوتن » وهو الذي اشترك معه في وضع أناشيد دينية ، وقد أصيب
كوبر فعلاً بالجنون للمرة الثانية من كثرة تأملاته وشكوكه وشدة خوفه

من الموت والآخرة ، وبعد أن شفى أصبح لا ينقطع عن نظم الشعر وكان يستفيد من أوقات فراغه بالعمل في الحديقة وبتربية الحيوانات الداجنة ، وأقبل على ترجمة «هوميروس» . ويقول النقاد إن هذه الترجمة هي أحسن من ترجمة «بوب» و «تسابمان» وغيرهما من الشعراء الذين حاولوا ذلك . وقد تعرف بأرملة اسمها «ليدى أوستن» ، وحكت له قصة الفارس «جون كلين» ومغامراته وطلبت إليه أن ينظمها شعراً ، واقترحت عليه أيضاً أن ينظم قصيدة طويلة عن «الأريكة» ، وهي قطعة أثاث لم تكن موجودة إلى ذلك الوقت ، وكانت هذه الأداة باعثاً على نظم قصيدة طويلة سماها في النهاية «الواجب» ؛ بمعنى أنها فرضت عليه فرضاً من تلك السيدة .. والقصيدة مجموعة خواطر عن نفسه ومحيطه ومعتقداته وآرائه ، وتميل إلى وصف الطبيعة ومناظرها وإلى شدة تعلقه بها ، وقد لفتت هذه القصيدة إليه الأنظار ، وأصبح منذ ذلك الحين يعد من كبار الشعراء . ولكنه عبثاً حاول أن يحتفظ بتوازنه العقلي . وآخر قصيدة كتبها بعنوان «الهالك» تدل على ما كان في نفسه من يأس وقنوط أدى به في النهاية إلى الجنون الأكيد ، والقصيدة تصف بحاراً غرق في الأوقيانوس الأتلنتيكي . وفي نهاية القصيدة يتحدث الشاعر عن نفسه فيقول :

« لقد هلكت كما هلك البحار ، كل منا في ناحيته

ولكن الأمواج التي غمرتني هي أشد من تلك التي غمرت

وبالبحر الذي سقطت فيه أشد قسوة من الذي سقط هو فيه »

أما ديوانه الأول فلا يختلف عن أسلوب «بوب» ، فهو يقيم بالقافية والوزن ويختار الموضوعات التي اعتادها الناس والأدباء في ذلك العصر ، وهى مجموعة قواعد أدبية تسيطر عليها نزعة التهمك والرغبة فى الوعظ والإرشاد ، فاسمعه يقول واعظاً فى قصيدة سماها « تزايد الخطأ » : —

« إن شئت أن تشرب من كأس المسرة التى فيها الضرر

فاشرب قليلا ، بل ذقها بمنتهى الحذر

من يشرب كثيراً منها فلا بد أن يقع

العادة لا يمكن نزعها وما نفع لها دواء

وكما حاولت قهرها ازدادت حرقة ولها

ومن امتنع عنها ، كان على حق ، ووجب له الثناء »

ومع ما فى هذه القطعة وغيرها من جمال فإنها على وتيرة واحدة ،

والإكثار من النصيحة والوعظ يورث الملل . وشعر « كوبر » إجمالاً

تنقصه المعرفة والتجربة ، فهو لم يختلط بالناس كثيراً بل كان يتجنبهم

ويخجل من أن يكون فى مجلس يضم عدداً كبيراً من الناس . بقى

« كوبر » يقلد النزعة الكلاسيكية إلى أن بلغ سن الخمسين . وفى هذه

المدة التى قضاها فى الشك والتأمل كون لنفسه عقائد ونظريات وأصبح

يفكر تفكيراً حراً مستقلاً من ناحية الشعر . وبعد أن قرأ من الشعر

الشيء الكثير وجد أن لا فائدة منه إن هو لم يغذ الشعور الدينى فى

الإنسان ، ويحبه فى الفضيلة ، ويخدم مقاصد روحية سامية . واعتقد بأن

اتجاه شعراء زمانه خاطيء ؛ فهم يتخذون الشعر وسيلة للشهرة ، وهو عندهم كالثوب الذى يلبس عند الاقتضاء وينزع عند ما لا تدعو الحاجة إليه . وأصر على أن غرض الشعر هو التعبير عن إحساسات الإنسان وعواطفه الداخلية الصادقة ؛ وقد ينظم الشاعر النظريات والمعتقدات فى قالب جميل دون أن يكون إحساسه بها عميقاً ؛ أو قد لا يحس بها مطلقاً إنما هى بالنسبة إليه خاطرة فكرية تمر أمام الخيلة فى برهة من الزمن دون أن تترك أثراً فى النفس ؛ وطريقته فى الشعر هى أن يرى الشئ — سواء أكان محسوساً أم غير محسوس — بنفسه ؛ ويتأمل فيه ويعيش فى جوه إلى حد يصبح معه ذلك الشئ جزءاً لا يتجزأ من كيانه ؛ ثم تراه يفسح المجال لهذا الشعور العنيف كي ينبعث من داخله مهدداً له الوسائل الشعرية التى توحى إليه بها نفسه . وهذا الأسلوب باطنى عميق ويختلف كل الاختلاف عن المقدرة فى صف المقاطع والألفاظ .

والمصدر الذى أصبح يستمد منه موضوعاته هو تلك الناحية من الطبيعة التى لم تمتد إليها يد الإنسان بعد ، فهو يرى خطاباً فى يوم ماطر ذاهباً إلى عمله فيصفه قائلاً :

« انظر إليه ، وقد ترك منازل الإنسان وما فيها من لهُو وهو بها غير عابئ .

وجاء ليعمل فأسه فى الغابة حيث كل شئ هادئ .

يظل وحيداً من الصباح إلى المساء يؤدي الواجب .
 وفي صحبته كلب نحيل أشعث قصير الذنب
 سريع الفهم ، حاد الذكاء ، يتبع الخطاب أنى ذهب .
 يبطن إذا أبطأ ، ويقفز إذا أسرع ،
 تراه يعبث بالثلج بأسنانه
 كي يزيل العقبات من أمامه
 وينفض الغبار عن ردائه
 ويعبر له عن سروره بنباحه . «
 ويصف موزع البريد قائلا :
 « ها قد أتى رسول العالم الصاحب
 يحمل على ظهره رسائل من ممالك الأرض جميعها .
 وكل همه أن يوصل الأمانة لأصحابها
 وليس من شأنه معرفة أخبارها .
 ألا تراه عائداً يعبر عن مرجه بالصفيير ؟ .
 في قدومه لو يدرى حزن للألوف .
 مصائب الناس كثير ، وهذى الرسائل بالأحزان ملأى .
 كم من رسالة بدمع العين قد كتبت
 وكم من زفرة من قلوب العشاق قد صدرت
 كل هذا ، وساعى البريد ليس يدرى »

وقد تعشق « كوبر » الطبيعة ومظاهرها إلى حد يقرب من العبادة ، وأصبح يعتقد أن لا سعادة حيث يكثر الازدحام والضجيج ، وفي الجزء الخامس من قصيدته « الواجب » يحاول أن يرغب الناس عن حياة المدن ويدعوهم إلى حياة الهدوء والسكينة في القرى ، ويعد حياة القرويين أقرب إلى الفضيلة والتقوى . ويقول فيها « إن الله هو الذى خلق القرية ، أما المدينة فهي من صنع بنى الإنسان » . من هذا نرى أن « كوبر » مهد الطريق لشعراء القرن التاسع عشر الذين اتخذوا الطبيعة لهم مرشداً ومعلماً .

أما نزعتة السياسية فظاهرة في بعض قصائده واضحة جلية ؛ ويختلف عن شعراء أوائل العصر بأنه أعمق نظراً وأشد صراحة وإخلاصاً ، فهو يدعو لحرية الأفراد والأمم السياسية ، ويذم الرق والعبودية ، ويذهب في الديمقراطية إلى حد أن الملك عنده يجب أن يحكم حسب دستور قويم عادل توافق عليه الأكثرية في البلاد ، فهو ديمقراطى النزعة إلى أمد بعيد ، وقد حمل على مظاهر الظلم والاستبداد في فرنسا قبيل الثورة الفرنسية . وكان يدعو إلى الإنسانية الشاملة ؛ ويحاول أن يوقظ إحساس الناس بها . وهذه المبادئ الإنسانية الحرة أصبحت من أهم الأمور التى شغلت عقول الأدباء والمفكرين في العصر التالى .

٥ - روبرت برنز

١٧٥٩ - ١٧٩٦

يختلف «روبرت برنز» في نشأته عن سائر الشعراء في زمانه بأنه كان فلاحاً اسكتلندياً بسيطاً ، وقد كتب أكثر قصائده باللهجة الأسكتلندية .

بقي «برنز» يعمل في حقل والده إلى أن بلغ الثالثة والعشرين ، وكان في هذه المدة يطالع كتب الأدب وينظم الشعر . وفي سن السابعة عشرة حاول أن يدرس علم المساحة ، ولكن طبيعته لم تكن تتلاءم وهذا العلم ، فعاد إلى الأرض وإلى حياة الكد والشقاء .

ومن المؤسف حقاً أن حياة هذا الشاعر اليومية وأخلاقه الشخصية لم تكن لتساعد نبوغه ، فقد كان ينغمس في الشهوات كلما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وقد نفر سلوكه هذا الكثيرين من المعجبين به ، وبعد أن كاد يصبح عالماً من الأعلام في مدينة « أدنبره » التي تلقت ديوانه الأول بحماسة وإعجاب ، اضطر أن يعود إلى الحقل ثانية ليكد ويعمل في سبيل الرزق .

آلمه هذا الموقف كثيراً ، ومع ذلك لم يتردد عن الحانات ولم ينقطع عن أماكن اللهو ، ولو أن هذا الرجل استطاع أن ينظم حياته لأسعد

نفسه ولسعد الكثيرون معه ، ولكن رغم نقائصه يعتبره النقاد رجلاً عظيماً وشاعراً كبيراً .

كانت حياة هذا الشاعر قصيرة، فقد مات وهو في سن السابعة والثلاثين ومع ذلك فهو يعد من كبار شعراء عصره ومن واضعي أسس النهضة الشعرية في أواخر القرن الثامن عشر .

من أهم ما يلفت النظر في شعر « برنز » خلوه من التصنع والتكلف والتعقيد ، فهو أزيز من القلب إلى القلب، ويعكس لنا حياة البساطة القروية بما فيها من حزن وسرور، وكد وتعب ، هو شعر منبثق من الطبيعة ومظاهرها التي لم تمتد إليها يد الإنسان . ولقد بقي زميله « كوبر » سنين طويلة قبل أن اهتدى إلى هذا النوع من الشعر ، أما « برنز » فقد نشأ لا يعرف شعراً غيره . فاسمعه يقول في إحدى قصائده التي تعد مفتاحاً لفهم مبدئه الشعري :

« ألا حسبي نيران الطبيعة شرارة

تغنيني عما في جميع العلوم من سعادة

بها في شقاء الحقل أجد الهناء

ونشيدى مهما كان ضعيف البناء

لا بد أن يصل إلى القلب بلا عناء »

وقد تزوج في سنة ١٧٨٨ امرأة أمينة فاضلة اسمها « جين أرمور »

وقد أحبها حباً شديداً ، وكتب فيها يقول :

« أنى وقعت عيني على شيء جميل فيه أراها
في الزهور المبللة بالندى

وفي كل ما هو حلو لطيف الحظ سناها

أنصت إلى تغريد الطيور فأسمع صوتها

وإلى الريح تردد صداها

ليس من زهرة تتضوع طيباً

وليس من طائر يغرد لحناً

إلا ويشير في نفسه لها ذكرى »

ويشعر قارئ شعر « برنز » كأنه ينصت إلى أنغام موسيقية
متناسقة ، ولا سيما إذا تعود قراءة اللهجة الأسكتلندية التي كتبت
فيها . وما أشد الفرق بين هذه الأنغام الحلوة وبين تلك القواعد الجافة
المنظومة شعراً ، والتي ليس فيها من قلب الشاعر أو شعوره الباطني أثر ،
والشعر بلا عاطفة كالجسم بلا حياة . وليس المهم الموضوع الذي ينظم
الشاعر فيه — مع العلم بأن الموضوع يساعد في بعض الأحيان — وإنما
المهم وجود ذلك الشعور المتدفق من قلب الشاعر أو عدم وجوده . فإن
كنت تميل للشعر فلا تقبل على نظم قصيدة إلا إذا شعرت بأن شعورك
قد غمرك وفاض ، وإذا ما زيد عليه قطرة واحدة أصبح احتمالاً فوق
طاقتك ، عندها انظمه بالشكل الذي تريد ، واترك الشعور ذاته يواجه
الأوزان والقوافي ، وإياك أن تجعل الأوزان والقوافي تتحكم فيك ، بل

إياك أن تسمح لأى اعتبار أن يتدخل بينك وبين شعورك العنيف .
 هذه الظاهرة ، وهذا الاتجاه الصحيح فى الشعر ، وهذه النهضة بدأها
 هذا الشاعر الفلاح ، كانت تجيش الخواطر فى نفسه وهو وراء الحراث
 وفى الحقول ، فيغنيها لنفسه ليطربها ويعزيها ، ثم يعود إلى بيته فى المساء
 فيكتبها ، فتأتى خالية من الشك والتنازع العقلى ، وهذا هو الوحي
 الشعرى . وكذا يجب أن يكون الشعر وإلا فلا ضرورة لوجوده .
 ولقد عبر « برنز » عن حياة الفلاح الأسكتلندى وعواطفه وآماله
 وأحزانه ، ووصف مسراته ومعتقداته وأوهامه . وقد أصبح شعره من
 هذه الناحية مصدراً هاماً ينتفع به المؤرخون ومن يهمهم الاطلاع على
 هذه الناحية .

ولا أود أن يفهم القارى الكريم أن شعر « برنز » هو مجرد
 شعور عميق بالأمور السطحية فى الحياة ، فهو عدا هذا وصّاف ماهر
 ونقاد تهكمى من الطراز العالى ، وتراه يشعر دائماً بأنه مخلص صادق
 فى كل ما يقول ، وهو على عكس « بوب » تماماً من ناحية أنه كان
 يتجنب الخط من كرامة الناس والغلظة فى القول .

وقد حاول أن يكتب باللغة الإنجليزية المصطلح عليها ، ولكن
 النقاد يعتبرون قصائده باللهجة الأسكتلندية أعمق شعوراً وأقرب إلى
 طبيعته وفطرته ، ففى هذه القصائد لم يستطع أن يطلق لنفسه العنان ،
 فجاءت وبعضها يشبه إلى حد ما شعر من لم يكونوا قد تحرروا بعد من تأثير

« بوب » والمدرسة الكلاسيكية . على أنه لحسن الحظ بقي يكتب باللهجة الأسكتلندية . وما كتبه بالإنجليزية العادية بالنسبة قليل . وقد كان لشعراء وكتاب اسكتلندا السابقين مثل « أن رمسى » « وروبرت فرغسون » ، كما كان للشعر الشعبي الأسكتلندى أثر شديد على شاعريته ، ويكاد لا يظهر في شعره أى أثر للشعراء الإنجليز القدماء . ولقد كان ديموقراطى النزعة يمتد التفاوت والبعد الشديد الذى كان يشاهده بين الطبقات ، وقد قال فى إحدى قصائده ما معناه : « ليست قيمة الإنسان فى رتبته أو فى الطبقة التى ينتمى إليها ، بل قيمته الحقيقية هى فى انتسابه لبني الإنسان » وهو يشبه « كوبر » من حيث إنه مهد السبيل إلى حب الطبيعة واحترام كل ما يبدو حقيراً فيها . فالفأرة فى نظره لا تقل أهمية من حيث الحياة التى فيها عن الأسد ؛ والزنبقة لا تقل جمالاً عن المرأة الفاتنة ، وهذا الشعور المتدفق نحو كل حى فى الوجود ساعد شعراء القرن التاسع عشر على إدراك مبدأ الإنسانية الشاملة ؛ ومن ثم عاد إلى الحياة ذلك النوع من التصور الذى يعتبر الحياة وحدة شاملة ، وأن الإنسان وسائر المخلوقات — صغيرها وكبيرها ، دينيها وعظيمها — إن هى إلا مظاهر لتلك الإرادة العليا التى تسيّر كل شىء فى الوجود .

ومن أجل ما كتب « برنر » تلك الأغاني الغزلية البريئة ، التى لا تنحدر مطلقاً إلى مستوى القصائد الغرامية الجنسية المثيرة للاحاساسات

البدنية . وفيما يلي مقطوعة من قصيدة غرامية في وداع الحبيبة يقول فيها :
 ألا قبليني قبلة الوداع ، رمز المحبة بيننا .

وداع ليس بعده لقاء . ومن يدرى مدى بعدنا .

بدموع القلب أعاهدك ،

و بأنات الصدر أتركك .

ليس في حظ المرء ما يحزن

ما دمت ، يا نجم الرجاء تؤنس .

لم يبق في حياتي من النور بصيص .

كل ما حولي ظلام دامس .

لست ألوم نفسي لذا الهوى

فالحب فوق جميع القوى ،

من يرك لأول مرة

لا بد أن يحبك دوما .

لو لم نتبادل الحب كذا

ولو لم ننس في حبنا آلام الهوى

لو لم نلتق ، ولو لم نلب نداء الفراق

لما كنا نفجع اليوم كسائر العشاق .

ومن يقرأ عدداً كبيراً من قصائد « برنز » يلاحظ أن عواطف

الشاعر مزيج من الضحك والبكاء والفرح والحزن . وتثير المظاهر

الطبيعية في نفسه ابتهاجا فيمتغنى به ، وفي نفس الوقت تراه يندب النقص في محيطه وحياته . وهو يمتاز من هذه الناحية عن سائر الشعراء بأنه استطاع أن يمزج الابتسام بالدموع بأسلوب لم يسبق له مثيل ؛ وعدا هذا فإن له نظرات وخواطر في الحياة العامة ، تدل على أنه كان يحاول أن يبني شعره على أسس صحيحة وأفكار ناضجة ، ونزعات حرة .

ليس في أسلوب هذا الشاعر من بقايا المدرسة الكلاسيكية سوى عنايته بانتخاب الألفاظ التي تعبر عن العواطف التي يريد بها . على أنه حتى في هذه الناحية يختلف عنها من حيث أنه هو الذي يتحكم في الألفاظ ، وتأتيه عفواً دون أن يبحث عنها ، وعقله لم يكن سوى خادم لعواطفه ، بينما كان « بوب » يجهد عقله في انتخاب الألفاظ الملائمة للمعنى ؛ وهذا النزاع العقلي العنيف كان يطمس شعوره ، ويقيم حاجزا بينه وبين عواطفه .

ومن أحسن ما كتب عن حياة « برنز » وشعره مقال « لكارليل » ، ويقول النقاد إن هذا المقال هو من أحسن ما كتب « كارليل » عن عظماء الرجال الذين حاول إظهار درجة نبوغهم في كتابه « عبادة الأبطال » ؛ وفيه يظهر إعجابه بمقدرة « برنز » على أن يكون فكها مرحارغم جميع صعوباته وأحزانه . فقد كانت حياته في اسكتلندا مرة قاسية ، حياة كد وتعب جسمي في سبيل الحصول على القوت ، ومع ذلك استطاع أن يحتفظ باتزانه العقلي ، وأن لا يستسلم لليأس في أية حال من الأحوال ،

ويعتبر « كارليل » شعر « برنز » مظهراً ضئيلاً عن عظمة نفسه وقوة شخصيته وتعدد مواهبه ، ويشبهه « ميراو » الفرنسي من حيث القوة ، وبعد النظر ورقة الشعور ؛ ويقول إنه لو أتاحت له الفرص التي كانت « لميراو » لقام بأعمال أعظم ، ولكن مع الأسف فقد قرر أولو الأمر أن « برنز » يجب أن يشقى ويكد في سبيل اللقمة ، وبهذا وضعوا حداً لتفكيره ! ومع ذلك بقي هذا الرجل صادقاً مخلصاً في مهنته إلى النهاية ؛ غير عابئ بمرتبه المتواضعة في الحياة ، ولكن ظروفه طغت إلى حد لم يستطع معه الاستمرار في الحياة .

٦ - وليم بليك

١٧٥٧ - ١٨٢٨

هذا الشاعر هو آخر الشعراء الذين اخترناهم كي ندرس في شعرهم مبادئ النهضة الشعرية في أواخر القرن الثامن عشر . وقد كانت حياته طويلة بالنسبة لحياة « برنز » ، وقد عاش ما يزيد على ربع قرن في العصر الرومانتيكي الجديد ، وهو أبعد الشعراء عن المدرسة الكلاسيكية ، وشعره من حيث المادة والأسلوب يكون حلقة مستقلة خاصة بين فريق المجددين ، مثل « جراي » و « كوبر » و « برنز » وفريق أعلام الشعر الرومانتيكي في القرن التاسع عشر ، مثل « وردزورث » و « كولردج » و « بيرون » و « شلي » .

ويعمل الأستاذ كرميان ظهور « بليك » وغيره من الشعراء المجددين بأنه رد فعل نفسى لتلك العناصر الرجعية في حياة الناس في القرن الثامن عشر ؛ وتلك القيود في اللغة والدين والأدب والاجتماع وكل شيء ، وهذا الضغط الشديد على الشعور أدى إلى ثورة وانفجار عاطفي . ولم يجد الشعراء لهم ملجأ سوى نفوسهم يتحدثون إليها ، ويثنونها شكواهم من عسف الماضي ، فجاء شعرهم باطنياً تصوفياً عميقاً .

و « بليك » هو أشد هؤلاء الشعراء المجددين تطرفاً ، فهو يركن كل الركون إلى ما تمليه عليه نفسه وما يلهمه إليه عقله الباطنى ، بغض النظر عما فى المحيط من عوامل معاكسة . فهو يعيش مع الناس ولا يشعر بأنه واحد منهم ، وهذا الاستقلال المتطرف فى الفكر والنزعة يشعر صاحبه دوماً بأنه غريب عن هذا العالم ، وأن ليس فيه من يفهم قوله ، فيصبح أدبه ذا طابع فردى خاص . وقد يلفت هذا الأدب نظر الناس بادية الأمر وقد يستعذبونه ويستطيبونه ، ولكنهم إن لم يحاولوا فهمه من وجهة نظر صاحبه ، فإنهم لا يلبثون أن يستغربوه ويملوه . وهذا ما جرى للناس مع « بليك » أو بالأحرى « لبليك » مع الناس . فقد كان لأسلوبه الجديد المبتكر ، وقع فى نفوس الكثيرين لمدة من الزمن ، ولكنهم وجدوه صعباً بعيد المنال ؛ فحادوا عنه ، وحسبوا الشاعر مجنوناً أو شبه مجنون ، وغدا شعره لطبقة خاصة من الناس — هى طبقة المفكرين المثقفين من الشعب .

نشأ « وليم بليك » فى لندن ، حيث كان أبوه تاجراً بسيطاً ، وكان فى صغره غريب الأطوار كثير التأمل والتفكير . وقد جاء مرة يخبر أمه أنه رأى النبى حزقيال جالساً تحت شجرة فى الحديقة ، فأنبته وقاصته . ومنذ ذلك الحين ظهر ميله للطبيعة ، فقد كان يفضل الإقامة بين الجداول والأزهار على أن يكون فى شوارع المدينة الصاخبة . ولم يكن حظه من التعليم وافراً ، ولكنه بدأ يميل لفن الرسم ونظم الشعر فى سن

العاشرة ، فلاحظ أبوه فيه هذا الميل فوجهه إليه . وكان دقيق الحس مرهف الشعور ؛ ويشبه « جان دارك » الفتاة الفرنسية من حيث إنه كان يرى رؤى ويدعى بأن الملائكة كانت تنظر إليه من خلال النوافذ والأشجار ؛ وعند ما أصبح رجلاً استمر هذا الشعور الديني العنيف يلزمه ، فكان يعتقد بأن أرواح العظماء مثل موسى وفرجيل وهومر ودانتى تزوره وتحادثه ، ولم يكن يخطر بباله قط أن يشك في هذه الخيالات ، أو يعدها مجرد أوهام تملئها نفسه عليه . وكان ينظر للطبيعة كرمز روحى ينبعث منه الجن والشياطين والملائكة ، وتأتيه من وقت إلى وقت بروح الصداقة أو العداوة وتنظر إليه من خلال الأزهار والنجوم ، وفي هذا المعنى يقول :

« ها هي ذى القبة الزرقاء ناشرة أجنحتها فوقنا .

وهذه الشمس في صعودها تغنى لنا .

وهذه الأشجار والحقول بالجن ملائ .

وهناك صغار الشياطين يقاتل بعضها بعضاً .

ومظلات النباتات البرية تظلل الملائكة بظلمها .

والله نفسه يبدو لى من خلال الزمن »

لم يحاول « بليك » قط أن يكون من إحساساته الغريبة ديناً ينشره على الملائكة ، بل كان يكتفى بأن يعبر عنها بقصائد وأناشيد غير عابئ بما يقوله الناس عنه ؛ ولم يكن يسعى للشهرة أو الغنى ، فقد عاش فقيراً

ومات فقيراً ، وبقى يكد ويعمل سنوات عديدة دون أن يترك في نفوس أهل زمانه أثراً . وبجانب قصائده العديدة كان يرسم وينحت مقلداً النحات النابغة الإيطالي «ميكيل أنجلو» ؛ ورسومه خيالية كأشعاره وهي رموز لأفكاره ومعتقداته ، ومع ما في شعره من الغموض تجده في بعض الأحيان يعتمد للوضوح فاسمعه يقول مثلاً واصفاً زهرة :

« آه ! . زهرة الشمس ، يا من أتعبك السير .

إلى متى تسارين الشمس والشمس بك لا تعباً .

تريدين الوصول إلى مقرك الحلو الذهبي .

إلى هنا ينتهى بك السير ، يا زهرة الشمس .

يا شباباً أضنته الشهوات ، ويا عذارى أضحين كالأموات .

ألا انهضوا من القبور .

واطمحوا شأن هاتيك الزهور » .

ومع ما في القصيدة من تعقيد لغوى كما جاءت في الأصل فإن معناها يبدو واضحاً بعد التأمل فيها . فهي نداء للشباب أن ينهضوا ، وأن يوجهوا أبصارهم نحو النور ، كما أن زهرة الشمس لا تتفتح أكمامها إلا في الشمس .

وفي قصيدة رمزية صغيرة سماها « سر الحب » يقول :

لا تحاول أن تبوح للحبيب بحبك .

إن كتمت الحب يبقى الحب في قلبك .

ليكن حبك كالنسيم .
 تشعر به ولا تراه بعينك .
 لم أصطبر يوماً فبحت بجبي
 وبخوف ورعشة في كل جسمي
 كشفت للحبيب عن سر قلبي
 آه ! . إن الحبيب قد مال عني
 بعد فقدان الحبيب ماذا أرى ؟ .
 أأصدق عيني أم قد أصبت بالعمى ؟ .
 هي التي أخذها المسافر واختفى
 وتركني حائراً أصارع ألم الهوى

وقد نشر « بليك » ثلاثة دواوين من الشعر : الأول كتبه في صباه ؛ والاثنان الآخران نشرهما بعد أن نضج وتكامل . وفي هذه الدواوين يجد القارئ قصائد جميلة تتفاوت في صعوبتها من حيث أسلوبها الرمزي ؛ منها قصيدة « النمر » ، « وشجرة السم » ، « وأنواع الغنى » ، « وسر الحب » ، « والزهرة المريضة » « والزمارة » . لكن كثيراً من قصائده تشبه الأحاجي ، وقد يوفق القارئ إلى حلها وقد لا يوفق ، وبعضها يستحيل ترجمته إلى لغة أخرى لشدة غموضه ، وكثرة رموزه . ولو أن « بليك » نفسه أراد ترجمتها لعجز عن ذلك ،

لأن هذه الطلاسم لا بد من شرحها إذا ترجمت ، و « بليك » لا يريد شرحها ، بل قد لا يستطيع إذا هو أراد شرحها . وقد قلده عدد من الكتاب الرمزيين ، ولكن لم يصل أحد منهم إلى درجته في الغموض . فقد تجهد دماغك ساعة تحاول فهم ما يريد ، وأخيراً إذا وفقت إلى فهمه تجده بسيطاً لا يستحق كل هذا التعب . و يبدو لى أن هذا النوع من الكتابة قد نشأ بقصد المحافظة على بعض المعانى كى لا تصبح رخيصة مبتذلة ؛ إذ قد يدرك الناس مزية الصدق أو الوفاء أو عامل الحب بعقولهم ، وقد يتحدثون عنها في مجالسهم ، ولكنهم فى كثير من الأحيان يقفون عند هذا الحد ، ويكون إحساسهم بها جـد ضعيف . فهؤلاء الرمزيون أخذوا يخفون هذه المعانى وراء ستائر من الألفاظ والتشابه والاستعارات كى يرغبوا القارئ على التأمل فيها والبحث عنها ؛ حتى إذا ما وجدها أصبحت غالية عنده . ولكن هذا الغموض الشديد أدى إلى نتائج غير التى قصدتها أصحابها . فقد أصبح أكثر الناس ولا سيما البسطاء منهم ، يبتعدون عنها لأنهم يئسوا من فهمها ، واكتفوا إما بالإعجاب بها عن غير فهم ؛ أو يفهمها على غير الوجه الذى أراده الكتاب . على أنه يوجد نوع من الأدب الرمزى المعتدل يمثله اليوم فى البلاد العربية الكاتب اللبناني « ميخائيل نعيمة » ؛ فهذا الكاتب يضع المعنى فى أغلب الأحيان فى قالب رمزى يساعد القارئ على فهم المعنى الذى يريده ، وهو من

هذه الناحية أسهل في أسلوبه الرمزي من صديقه المرحوم « جبران خليل جبران » ، لأن « جبران » كان شديد التعقيد وهو أقرب إلى « وليم بليك » ، ويقال إنه قد تأثر به إلى حد بعيد . وكثير مما كتبه جبران لا يزال في عالم الغموض لا يفهمه إلا القليلون . ويكتفي القارئ العادي أن يقول عن « جبران » إنه كاتب خيالي ؛ مع أن الواقع هو أن « جبران » كان يحاول التعبير عن مبادئ وحقائق لا دخل للخيال فيها ؛ فهو واقعي إلى أقصى حدود الواقعية ، ولا يكتفي بالبحث السطحي بل يغوص على المعاني ويحاول أن ينفذ ببصيرته إلى أعماق الأمور ، وقد يتخيل حادثة أو يرسم صورة خيالية رمزية بقصد أن يكشف عن باطن الشيء أو يجلو ما هو غامض عن عيون الناس ، ولولا هذا الإغراق في الرمزية لاستفاد الناس من أدبه أكثر مما استطاعوا أن يستفيدوا منه إلى الآن . وقد يعود سبب إهمال الأدب الرمزي في بعض الأحيان إلى كسل الناس عن متابعة فكرة الكاتب ؛ أو إلى ضيق في الوقت يمنعه من التفكير والتأمل زمناً كافياً .

ومما ساعد « بليك » في حياته الأدبية الشاذة زواجه بامرأة أحبته إلى درجة التقديس والعبادة . ومن غريب أمر هذه المرأة أنها عندما تزوجت كانت أمية لا تستطيع توقيع اسمها ، ولكنها تعلمت في بضع سنوات ، وأصبحت تشارك زوجها في أعمال النحت والرسم ، ونجحت

فى هذه الناحية حتى أنه يصعب علينا اليوم التفريق بين آثارها وآثار زوجها ؛ فقد استطاعت تقليده إلى حد بعيد ، وقبلت أشباحه وخيالاته والرؤى التى كان يتحدث عنها ببساطة الطفل ؛ وكانت تساعد وتشجعه وتشاركه ألمه وسروره ؛ وكان هو يقدرها ويعجب بذكائها .

كان معاصرو « بليك » يعدونه مجنوناً فاقد العقل ، حتى أن « وردزورث » قال عنه مرة . « لا بد أن يكون فى هذا الرجل المسكين نوع من الجنون ، ولكن جنونه يلذلى أكثر من اتزان عقلية « اللورد بيرون » أو السير « ولترسكوت » . وقد بنوا حكمهم عليه من تصريحاته غير المعقولة ، مثل قوله إن عدداً من الأنبياء تغدوا معه ، وأن الملائكة حادثته . على أنه بعد مرور عدة سنين على وفاة هذا الرجل أقبل المفكرون على درس حياته وأشعاره ، فوجدوا فى مجموعها عبقرية نادرة وفلسفة صوفية عميقة ؛ ولقد استطاع هذا الرجل أن يثبت بحياته وأقواله أن حقيقة الحياة ليست فيما تدركه الحواس فحسب ، وليست فيما بناه الإنسان على مرور الأيام ، بل هى فى علاقة الإنسان بالعالم غير المنظور ، وباتصاله بذلك المصدر الأعلى الذى تنبثق منه العواطف والمبادئ وسنن الحياة الدائمة . وهو يدعو إلى تحرير النفس من سلطان الجسد ، وإلى ترفعها عن مستوى المحيط المادى الذى خلقه الناس وعبدوه . وقد لجأ إلى الرموزكى يخفى هذه الحقائق الكبرى عن ضعاف العقول ، وكى تبقى كنزاً ثميناً للمفكرين المخلصين .

بهذا البحث الموجز عن « بليك » نضع حدًا لهذا الباب عن أدب القرن الثامن عشر وقد حاولنا فيه درس النزعات والاتجاهات بصورة مجملة كما تمثلت في حياة بعض الأدباء البارزين فيه وكتاباتهم . وقد رأينا أن هذا العصر هو عصر تطورات وانقلابات ، أدت في النهاية إلى ظهور الحركة الرومانتيكية التي سنتحدث عنها في الباب الثاني من الكتاب .

الباب الثاني

الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر

الشعر

١ — نظرة عامة

يقسم مؤرخو الأدب الإنجليزي القرن التاسع عشر من ناحية الأدب إلى عدة أقسام ، كل حسب طريقته وغرضه . وقد رأيت أن أتبع طريقة من يقسمه إلى قسمين كبيرين . والقسمان لا يختلفان إلا من حيث إن الأول هو مسبب للثاني ، وكلاهما يعود في أصله إلى الحركات السياسية والفكرية في أواخر القرن الثامن عشر . ولكي نفهم هذا العصر لا بد لنا من درس الثورة الفرنسية ومبادئها ، والآراء الحرة والنزعات الديمقراطية التي كانت تنتشر في ذلك الزمن في إنجلترا وأميركا وبعض البلدان الأوربية الأخرى . ومن ألد الموضوعات وأفيدها لدارس الأدب أن يحاول درس أثر المجتمع على الأدب وبالعكس . وأدب القرن التاسع عشر خاصة كان نتيجة الظروف والأحوال ؛ تدفعه وتسوقه نزعة واحدة — هي نزعة الحرية وثورة الإنسان على محيطه ونظمه وتقاليده ،

وقد أدى هذا إلى احترام شخصية الفرد ، والعناية بأحوال الطبقات المختلفة ، والاهتمام بحياة البسطاء من الناس ورسم الخطط للإصلاح ، لذلك فإن أدب القرن التاسع عشر هو حلم عدد كبير من الأدباء وعظماء الرجال ، ومجموعة مبادئ عبّروا عنها بالألفاظ ، وهذه الألفاظ كان لها أثر شديد في حياة الناس وطرق تفكيرهم .

كان للثورة الفرنسية ومفكراتها أمثال جان جاك روسو وفولتير أشد الأثر على توجيه أدب القرن التاسع عشر في إنجلترا . فقد كانت إنجلترا في ذلك الوقت تتمتع بسيطرة صناعية وتجارية نشأت بسبب مخترعات القرن الثامن عشر . لكن تلك الثروة العظيمة لم تكن قد وزعت توزيعاً عادلاً بين السكان . وكانت البطالة منتشرة بين الطبقات الفقيرة بسبب تحسين الآلات وعدم الحاجة إلى عمال . وقد زادت الضرائب على الناس إلى حد ارتفعت معه الأسعار ، وأصبح الفقراء في حالة سيئة جداً ؛ وطفعت موجة تدمير أدت إلى التمرد والثورة في بعض الأحيان ، ولو لم يتلاف المفكرون في إنجلترا الأمر لقامت ثورة في البلاد لا تقل في عنفها عن الثورة الفرنسية . وكان الفضل في الإصلاح في الدرجة الأولى للكتاب والأدباء ، فقد وجهوا العقول إلى نوع من التوازن الاجتماعي كان من شأنه تحسين حالة الأفراد ، ومنع امتداد الثورة للنفوس . لذلك بقيت الثورة حركة فكرية أدبية غزيرة في مادتها عظيمة في مبادئها .

أما مميزات الأدب في هذا العصر فهي اهتمام الكتاب بالسياسة والاقتصاد والاجتماع ، ولسنا نغنى أن الكتاب في العصور السالفة لم يعالجوا هذه النواحي ، ولكن معالجتهم كانت مقتصرة على النقد الأحوال والأنظمة السائدة . أما كتاب القرن التاسع عشر فقد حاولوا أن يصوروا للناس الواقع وما فيه من مساوئ ، وفي نفس الوقت حاولوا أن يلفتوا النظر إلى ما يمكن أن يكون عليه المجتمع لو أنه اتبع مبادئ الإنسانية المطلقة . وهذه المبادئ على حد تعريفهم هي الرجوع إلى البساطة والعدول عما خلقه الإنسان من تعقيد ، والعناية بكل ما في الطبيعة من جمال وتناسق . ففي الزهرة جمال أكثر من جميع ما عمل الإنسان ؛ وفي الكوخ الحقير البسيط فن وابتداع أكثر من جميع القصور التي شادها الأغنياء . والحرية التي منحها الطبيعة للإنسان هي أثمن من جميع مقتنياته وما يدعيه من عظمة زائلة ؛ وشخصية الفرد أصبحت في نظرهم أقدس مظهر في الوجود .

هذه الحركة الفكرية التي سميت بالحركة الرومانتيكية هي روحية نفسية مصدرها القلب والعاطفة ، ولم يكن للتحليل والبحث العلمي سوى نصيب قليل فيها ، ولكن نتائج هذا الركون للقلب والعاطفة لم تكن طائشة أو غير متزنة ، بل كانت مرتكزة إلى فهم وبصيرة تنفذ إلى حقائق الوجود ، وهي بعيدة عن السفسطات والمجادلات التي كانت تسود العصور السابقة . وكان الشعب الإنجليزي يتلقى هذه المنتوجات الأدبية

خالصة صافية . ويعتبر كل واحدة منها قطعة منفردة فيها متعة خاصة
 وقيمة فنية مستقلة ؛ فهي جديدة في موضوعاتها ، مبتكرة في أساليبها
 وقد أقبل الناس على قراءتها بشوق وشغف ؛ ونسى أو كاد ينسى شعر
 الماضي ونثره ، لأنهم وجدوها أقرب إلى أفهامهم ، واقتها أنسب لإدراكهم ؛
 فقد حاول الشعراء أن يتجنبوا التعقيد فحادوا عن الأوزان القديمة ووضعوا
 أوزاناً جديدة تناسب موضوعاتهم ، فأصبحت الأوزان متعددة مضطربة
 ونشأ عن ذلك اعتقاد كثيرين من شعراء العربية اليوم أن المهم في
 الشعر ليس الوزن والنظم ، بل الصور الشعرية ومقدار ما في الشعر من
 معان وشعور عميق صحيح .

ومع أن الثورة الفرنسية والأدب الفرنسي ساعدا على توجيه الأدب
 الإنجليزى فى القرن التاسع عشر ، إلا أن تأثيرها يكاد يختفى على مرور
 الزمن ، إذ أن الأدباء استطاعوا أن يكونوا أدباء راقياً ذا شخصية مستقلة ،
 ومن الغريب أننا لو استعرضنا الشعراء والكتاب واحداً واحداً لوجدناهم
 مختلفين إلى حد بعيد فى موضوعاتهم وأساليبهم وطرق تفكيرهم ، وإن
 اتفقوا فى شىء فإنما هم متفقون فى النزعة التصوفية التى تجلت فى أدبهم ،
 لكن تلك النزعة لم تكن تصوفية بالمعنى الدينى بل بالمعنى الشعورى
 الباطنى ؛ أى أنهم كانوا يحسون إحساساً عميقاً فى كل ناحية من نواحي
 حياتهم . فمثلاً « ورد سورث » يتأثر من سقوط البندقية ويرى الحادث

مؤسفاً إلى حد أن ينتظر من الناس جميعاً أن يشاركوه هذا الأسف فيقول :

« نحن بشر ، وما دمنّا بشراً ، فلا بد أن نحزن عندما نرى حتى أن ظل عظمة هذه المدينة قد تلاشى » .

وقد مال الشعراء إلى حياة القرية أكثر من حياة المدينة ، لأنهم وجدوها أقرب إلى الطبيعة ، ورأوا في حياة الفلاح جمالا ومادة للوصف أكثر من حياة النبلاء والطبقات الراقية . وأقبلوا على وصف الطيور والحيوانات واستمدوا منها فلسفة وغبطة . ويخطئ من يظن أن الحركة الرومانتيكية هي حركة خيالية مغرقة في الخيال ، فهي حركة واقعية ، ولكنها معقدة مركبة إلى حد يجعل تحليل عناصرها أمراً بعيد المنال . فلو أخذنا قصيدة « شلى » مثلاً في مناجاة القبرة وجدناه يصف الطائر وصفاً دقيقاً ، وفي الوقت نفسه حاول ربط تلك الأوصاف بمشاعره الشخصية العديدة ، ويستخلص منها فلسفة هي زبدة ما يعتقد وخلاصة ما يأمل للبشر جميعاً .

أما النزعة الوطنية فكانت قوية جداً في نفوس الشعراء والأدباء ، وهي وطنية لا تنحصر في حبهم لبلادهم فحسب ، بل في الانتصار لكل أمة مستعبدة مهضومة الحقوق ، فهذا هو ذا « بيرون » ينتصر لليونان ليس بشعره فقط بل يقدم ماله وحياته من أجلها . و« كارليل » ينتصر للإسلام ويدافع عنه دفاع الأبطال في كتاب الأبطال ، وروايات

« سكوت » وأشعاره مليئة بالأبحاث الوطنية ، وفيها حماسة ظاهرة للناحية القومية ، وكثير من التمجيد لروح الفروسية .

كان للشعراء والكتاب أحياناً شغف غريب خاص في وصف المشاهد والحوادث الغريبة الخارقة لنواميس الطبيعة ، ولعل هذا الميل يرجع إلى تمادى الشعراء في محاولتهم التملص من مرارة الواقع ، ورغبتهم الشديدة في إيجاد عالم آخر يعيشون فيه غير هذا العالم يكون جوه أنظف وأتقى ، فجاء أدبهم في بعض الأحيان باطنياً نفسياً ، ولكنه لا يمت إلى العالم الخارجى بصلة . « فشلى » مثلاً يتصور سحابة اتخذت البرق دليلاً تحاول معه مراقبة حركات الجن في البحر كي يجد الروح التي يعشقها البرق . وهذه الروح توجد تحت الجبل أو في الغدير ؛ ويتخيل الشاعر البرق يذوب تدريجاً في المطر ، مع أنه من المعقول أن يجعل السحابة تذوب وتتلأشى — إن كان لا بد من ذلك . والفكرة الشعرية في القصيدة غامضة معقدة يصعب فهمها إلا بعد جهد وتعب ؛ وحتى بعد أن تفهم تبقى بعيدة عنا لما فيها من التكلف والانحراف عما تعودناه وألفناه . و « كولردج » يصف بحاراً رآه في البحار وقد جرفه التيار إلى القطب الجنوبي حيث الجليد والبرد يقضي على كل حي في تلك الأصقاع . بقي البحار ورجاله هناك إلى أن جاءهم طائر بحري قادهم شمالاً بين الضباب والجليد ، وعندما وصلوا إلى مكان آمن قتل البحار الطائر الأمين ، وهنا يطنب الشاعر في وصف ما لاقاه البحار من الأهوال جزاء

لعمله الفظيع ، و بعد أن يلاقى رفاقه جميعاً حتفهم يبقى هو وحيداً معذباً ، إلى أن تأتيه نجدة ملائكية ، و بعد محاولات تغفر له خطيئته يتوقف العذاب الجسدى ، ولكن ضميره يستمر معذباً ، ولكى يكفر عن زلته يجوب الأرض واعظاً بين البشر أن يحبوا ويحترموا جميع مخلوقات الله وأن لا يحدثوا لأى مخلوق ضرراً . والقصيدة فلسفية طويلة ، وأسلوبها قصصى رائع ، ولكن حوادثها غريبة ، ومشاهدها خارقة لنواميس الطبيعة ، ويمكن أن نعدّها قصة خرافية رمزية غرضها الدعوة إلى احترام الحياة ومحبة جميع مخلوقات الله .

وخلاصة القول أن الأدب الإنجليزى فى القرن التاسع عشر هو أدب شامل واسع ؛ أغراضه كثيرة وأساليبه متعددة ، حتى إننا مهما حاولنا حصرها وتعيينها نجد أننا لا نزال مقصرين . ولقد ساعد التقدم العلمى الحركة الأدبية وغذاها . وسنرى فى الفصول المقبلة كيف أن الأدب أخذ يجارى العلم فى تقدمه حتى أصبح مرآة صافية تنعكس عليها مميزات العصر . . .

٢ - وردزورث ، كولردج ، سودى

١٨٤٣ - ١٧٧٤ * ١٨٣٤ - ١٧٧٢ * ١٨٥٠ - ١٧٧٠

بدأت الحركة الرومانتيكية فى الشعر فى أواخر القرن الثامن عشر وزعيم هذه الحركة هو « وليم بليك » - ذلك الرسام الشاعر الذى قلده فى كثير من نواحي أدبه - ولا سيما من الناحية الرمزية - شاعرنا وكاتبنا « جبران خليل جبران » كما سلف القول . أما الأدب الرمزي الغامض الذى عنى به هذا الشاعر وغيره فلا يدوم طويلا على ما اعتقد مهما كان راقيا ، لأن الناس يجدونه صعبا وبعيدا عما اعتادوه فى حياتهم اليومية ، لذلك فإن أدب « وليم بليك » لا يقرأ اليوم كثيرا ، مع العلم بأن مكانته الفنية لا يزال يقدرها الشعراء والإخصائيون فى الأدب .

أما النصف الأول من القرن التاسع عشر فقد نبغ فيه عدد كبير من الشعراء أهمهم ثلاثة : « وليم وردزورث » و « صموئيل كولردج » و « وروبرت سودى » وهم الأصدقاء الثلاثة الذين لقبوا بشعراء البحيرة .

أما « وردزورث » فلقب بشاعر الطبيعة لأن شعره يعكس لنا حبه المتناهى للطبيعة ومظاهرها ؛ وهو يرى هذه المظاهر كلها وحدة غير متجزئة ، ويحاول

Lake Country not the Lake

أن يجد العلاقة بين الإنسان والطبيعة ، وهو أكثر شعراء هذا العصر تأثراً بمبادئ الثورة الفرنسية : الإخاء والحرية والمساواة . وقد عاش في شبابه في فرنسا قبل الثورة بزمن قصير ، فاستمد منها مادة لشعره ونظم قصائد طويلة تدل على ما كان في نفسه من إخلاص نحوها ؛ على أن شعر « ورد زورث » الفلسفي هو الذي جعله يتفوق على شعراء العصر السابق ، فهو يختلف عنهم في أنه لا يصف المظاهر الطبيعية واحدة واحدة فحسب كما فعلوا ، بل يضمن هذا الوصف فلسفة كبرى ذات علاقة بالإنسان والحياة العامة . فنشعر عند قراءة قصائده أننا نرتفع على أجنحة الفكر ، وأنها ننتقل بكليتنا معه إلى عالم واسع ، وهناك نرى الأشياء كما يريدنا أن نراها ، فيقنعنا مثلاً أن قيمة الزهرة المهمة المحتجبة وراء صخرة ليست أقل جمالاً من النجم المتألق في السماء . أما قصائده الفلسفية فتدور حول علاقة الإنسان بالطبيعة ، ويعتقد بأن الإنسان قد أساء إلى نفسه لأنه ابتعد عن سنن الطبيعة ، وأن ليس من دواء لاسترداد سعادته سوى رجوعه إلى أحضان الطبيعة ، وعودته إلى البساطة في العيش والابتعاد عن التكلف ؛ وهو يرى في حياة الأطفال سعادة سماوية لأنها بعيدة عن التصنع ، وأنها لا تزال متصلة بالمصدر الأعلى ، وفي هذا المعنى يقول :

« ولادتنا على هذه الأرض إن هي إلا حلم ونسيان .

والنفس التي ترافقنا إلى العالم .

كانت يوماً في مكان آخر بعيد عن هذا المكان .
 تولد في هذا العالم حاملة بعض ذكريات ماضيها .
 وعليها ظل من المجد السماوي حيث كنا نقيم .
 وفي طفولتنا تخيم السماء حولنا .

ولكن لا تلبث ظلمات السجن (أى الحياة الأرضية) أن تطبق
 على الطفل النامي .

ولكنه يبقى متمتعاً بالنور إلى وقت ما ، لأنه مصدر سروره .
 والشباب رغم ابتعاده يوماً فيوماً عن النور ومبعثه في حياته .
 يظل قريباً من الطبيعة ، ويدرك النور لأن حدة بصره
 لا تزال تهديه .

وعند ما يصبح الشاب رجلاً يتلاشى النور .

ويتحول إلى بصر عادي »

أما صديقه « كولردج » فلا يقل عنه نبوغاً ، ولكن يختلف عنه
 في النزعة والأسلوب . وهذا الاختلاف يعود إلى أن الاثنين كانا على
 طرفي نقيض من حيث الخلق والمزاج . فالأول هادئ الطبع قوى
 الإرادة ، لا يرى في الحياة ما يستحق التشاؤم والنكد ، والثاني
 عصبي المزاج ضعيف الإرادة ، لا يستقر في مكان ولا يحافظ على
 مواعيده . مما جعل الناس ينفرون من حضور محاضراته ، رغم أنها
 كانت قيمة ، لأنه كان يأتي إليها متأخراً وينسى ميعادها . وكان

يحتقر المال إلى حد أنه كان يجهل احتياجات عائلته الضرورية . وكان يأبى أن يتقاضى مالا على ما يكتبه ، ويكتفى بأن يعيش على ثلثائة وخمسين جنياً سنوياً يتقاضاها من وظيفة يشغلها ، إلى أن عطف عليه بعض أصدقائه وأقنعوه بأن ينصرف للشعر والأدب بكليته بضع سنوات ، وهم يتكفلون بأمر معيشته ، وكان يشكو المألم مستمراً في أعصاب رأسه ، ولكن يخفف هذا الألم أقبل على المخدرات ، فكانت حياته سلسلة من الآلام الجسمية والنفسية . ولولا أصدقائه ولا سيما « ورد زورث » ومساعدتهم له وتشجيعهم إياه لما استطاع أن ينتج شيئاً يستحق الذكر . وقد عبر عن ألمه بقصائد رائعة منها قصيدة يصف فيها حزنه على حالته يقول فيها :

« حزن مظلم موحش بلا تفرج .

بات في هذا الحزن مختنقاً ، ليس فيه انفعالات الحياة .

لا أجد منفذاً يفرج كربى .

لا تنهد يجدى ولا دمع ولا كلام .

« وكولدرج » من أولئك الشعراء الذين أشرنا إليهم سابقاً ، فهو مولع بوصف الحوادث الغريبة الخارقة لنواميس الطبيعة ، وقد يكون السبب في ذلك هو محاولته الانطلاق في التفكير والانصراف عما يؤله في حياته ، وقد وفق من هذه الناحية في كثير مما كتبه ، وأشهر قصيدة تجلت فيها هذه الظاهرة هي قصيدة « الملاح القديم » التي مر ذكرها . أما الشاعر الثالث « سودى » ، فيتمتع بشهرة واسعة لا لأنه شاعر كبير ،

بل لأنه عاش مع شاعرين كبيرين في منطقة واحدة وعاشرهما زمنًا طويلاً ، مع أن مجموع ما كتبه يزيد على مجموع ما كتبه الاثنان معاً . وأهم قطعة كتبها هي قصيدة « ثعلبة » ، وهي ترجع إلى مصدر عربي وعدد فصولها اثنا عشر فصلاً . أما شعرها فأقرب إلى النثر ، وأوزانها مختلفة مضطربة ، وتنقصها النزعة الفلسفية . فهي مجرد أوصاف لا ترمى إلى هدف واحد ، ويمكن أن نعدّها نوعاً من الشعر القصصى المختص بسير الأبطال . أما قصيدته « لعنة كهاما » فترجع إلى الأساطير الهندية ، وقد وفق فيها أكثر مما وفق في قصيدة « ثعلبة » ، فهو ينقلنا إلى الفردوس الأرضي ، إلى ممالك تحت البحار ، ومنها يصعد بنا إلى الجحيم الهندي ، ويسرد علينا قصة راجا هندي اسمه « كهاما » يحاول أن يكفر عن زلانه بتعذيب ذاته ويرتفع بذلك إلى مصاف الآلهة . وقد وفق الشاعر في محاولته أن يشعرنا بثقل اللعنة التي أوقعها ساحر مشعوذ على رأس الراجا ، ويهزنا طرباً عند ما تزول اللعنة عنه ، ويعود إلى عائلته فرحاً باسم الوجه . ومع ما في هذه القصيدة من الصور الشعرية المتنوعة ، إلا أنها لا تترك أثراً عميقاً في نفس قارئها ، وإذا قرأها مرة فإنه لا يعود إليها ثانية بقصد المتعة واللذة . ولقد كتب « سودي » كمية كبيرة من النثر ؛ منها حياة بعض العظماء في التاريخ مثل حياة « نلسن » ، وكان ينشر مقالات عديدة في بعض المجلات ، وألف تاريخ البرازيل . وكان لهذه المؤلفات تأثير على عدد من الكتاب ؛

وإذا ما ذكر اسمه اليوم بين الأدباء ، فإنما يذكر من أجل نثره لا من أجل شعره ؛ وأبرز صفة في هذا الشاعر الناثر هي إقباله الشديد على الدرس والمطالعة والإنتاج الأدبي، وكان لا يجد سعادة إلا بين الكتب ، وهذا مما جعله أكثر اطلاعاً من سائر زملائه الشعراء والكتاب في ذلك العصر .

هؤلاء الشعراء الثلاثة كانوا فاتحة عصر جديد ، وكتاباتهم كانت نوعاً من الأدب جديداً ؛ وهم قادة الحركة الرومانتيكية في النصف الأول من القرن التاسع عشر بلا نزاع . أما باقي الشعراء فكانوا لهؤلاء الثلاثة أتباعاً ومقلدين ؛ ما عدا ثلاثة هم «شلي» و«بيرون» و«كيتس» ، وهم شبان عاشوا حياة قصيرة جداً ، وأكبرهم سنّاً وهو «بيرون» مات وهو في سن الثانية والثلاثين . وسنأتى على ذكرهم في الفصل التالى .

٣ — شلى ، و كيتس ، و يرون

١٧٩٢ — ١٨٢١ * ١٧٩٥ — ١٨٢١ * ١٧٨٨ — ١٨٢٤

أما الشعراء الثلاثة الذين سنتحدث عنهم فى هذا الفصل فقد فاجأوا العالم بنبوغهم وأضاءوا الفضاء برهة قصيرة ، ثم خبا نور حياتهم بعد أن خلف كل منهم ديواناً كان له أثر فى بناء أدب القرن التاسع عشر .

والثلاثة مختلفون فى أسلوبهم وموضوعاتهم ، إلا أن نزعة الثورة والتجديد فى الأدب تجمع بينهم ، وأكثرهم ثورة على المجتمع وتقاليده

هو « شلى » . فقد تأثر كما تأثر غيره بمبادئ الثورة الفرنسية ، فهو متمرد منذ صغره يأبى الخضوع لنظام التدريس ، ثم هو ينشر آراءه المتطرفة

فى الدين والاجتماع فى كتيب صغير يطرد بسببه من المدرسة ، فيلجأ للشعر لا ليتغنى بالماضى ، أو يمعن فى وصف الحاضر وما فيه من خير وشر ؛

بل يتخيل ما يجب أن يكون عليه إنسان المستقبل ، يوم تصبح الأرض مكاناً يحى فيه الإنسان حياة الحرية مع أخيه الإنسان . فهو بذلك

ينادى بنفس المبادئ التى نادى بها الفلاسفة والشعراء الأقدمون ، ولكنه اتبع فى ذلك طريقة جديدة لفتت إليه الأنظار ، وقد أحبه الناس

رغم شذوذه وتمرده لسهولة شعره ، وجمال أسلوبه وسمو مقاصده . وهو لا يختلف عن « وردزورث » فى التجائه إلى الطبيعة الصامتة كي

ترشده وتفهمه ، وهو يرى فيها معانى الحب والإيمان ، وفى أغنيته

« إلى الروح الغربية » التي تعد المفتاح لفهم شعره ومبادئه يقول :
 « اجعليني أيتها الريح قيثاراً لك ، كما أنك جعلت الغابة آلة لإنشادك
 وما الفرق بيني وبينها ، ما دامت أوراق حياتنا متشابهة في
 السقوط ، ولسوف تجدني فيها وفي وسيلة للتعبير عن أناشيدك القوية
 الصاخبة

بأنغام هي أنغام الخريف رغم رنة الحزن التي فيها .
 فكوني أيتها الروح الجبارة روحى ، ولأكن وإياك شيئاً واحداً
 يا مصدر القوة والإلهام
 سيرى أفكارى وانشرها في العالم ، كي توقظ العقول وتدفعها إلى
 حياة جديدة وطور جديد .
 هي على شعري وبددى كلماتي ، كما تبددين الرماد والشرر من الموقد
 لعله يتساقط في قلوب الناس .
 أذيع رسالتك من خلال شفتي لعلنا نستطيع أن نوقظ هذه الأرض
 من نومها .

أيتها الريح ! إن جاء الشتاء ، فهل يتأخر قدوم الربيع ؟
 وقد أكثر شلى من مناجاة مظاهر الطبيعة ووصفها ، وكلها تعبر عن
 نفس هائمة حائرة تنظر إلى الأرض من العلاء ، وتريد أن تنهض جميع
 الناس إلى السماء . وقد مات «شلى» غريقاً في إيطاليا في حدود الثلاثين ،
 وفي هذه المدة القصيرة كتب قصائد طويلة عديدة برهنت على عبقرية

نادرة منها قصيدة سماها « ثورة الإسلام » وهى أبحاث عديدة فى قالب شعرى : فى الصداقة ، والمرأة والمذهب النبائى إلى غير ذلك من الموضوعات ، وفيها حملة على الطغيان والجبروت ، ودعوة إلى ثورة روحية يكون من شأنها رفع مستوى الإنسان إلى المثل الأعلى .

أما « كيتس » فلم يكن مصلحاً ولا مجدداً ، إنما عاش حياة منفردة بعيدة عن السياسة والاجتماع ومشاكل العصر ، واكتفى بأن يكون شاعراً يناجى الجمال ويردد صدى نبضات قلبه المغمم بالعاطفة والحب ؛ وهو يعكس لنا فى شعره جلال الطبيعة وبهاءها كما كان يراها ويتخيلها ، وكان يعتقد أن الشعر يجب أن يكون من أجل الشعر ذاته ؛ ويرى فى محاولة الشعر أن يخدم مقاصد فلسفية أو سياسية انحرافاً عن المثل الأعلى ، فهو يقول فى هذا المعنى :

« ألا ترى الجمال يغيب عند ما تمسه يد الفلسفة القاترة .

أرى فى السماء ، بين حين وآخر ، قوس قزح ، ومنظره رهيب .

فهل من سبيل لدرس خيوطه الجميلة ، ونسيجه العجيب .

ألا يصبح من عادات الأمور إذا نحن اتبعنا طريقة المقايسة

والتحليل . »

تعشق « كيتس » المثل الأعلى فى الشعر ، ووجد فى العلوم اليونانية القديمة مادة غزيرة لقصائده ، وأخذ يقلد شعراء عصر الملكة اليصابات فى أسلوبه عن غير قصد ، ولكنه كان مجدداً فى التقليد . وقد كتب ديوانه بأمله

ونشره في مدة ثلاث سنوات ، ولم يمهله القدر كي ينضج ويتكامل بل اختطفه الموت وهو في الخامسة والعشرين ، ويرى النقاد أنه لو عاش طويلاً لأظهر تفوقاً على جميع شعراء عصره ، وكان يسعى بأن يجعل شعره خالداً لاعتقاده أن الجمال لن يموت ولو زال الجسم الذي يحتويه ، فهو يبقى في الذاكرة مخلداً وينتقل من جيل إلى جيل ، ولقد أدهش إخلاصه لمثله الأعلى أصدقاءه ومعاصريه ، عدا بعض النقاد الذين كانوا يسرفون في ذم شعره وأظهار أخطائه . ولكن أصدقاءه ، ولا سيما « شلي » كانوا يغضون النظر عن قصوره في بعض النواحي الفنية لصغر سنه ، ولما كانوا يلاحظونه فيه من الإمكانية والولاء للفن .

أما أخلاقه الشخصية فكانت حميدة ، وكان يعتقد أن الشعر الجميل يجب أن يصدر عن شخصية جميلة منزهة عن الدنيا وإلا كان الشعر مصطنعاً ، وغير خارج عن عاطفة صادقة خالصة . ومن صفاته أنه لم يكن فتى مغروراً . فقد كان يعترف دائماً بعدم معرفته وقلة اختباره ، ولكنه أقبل على العلم كالنهم الجائع ، فقرأ كثيراً من الشعر والنثر في القديم والحديث ، وكان يتطلب الحقيقة لا عن طريق العقل فقط بل بواسطة الحس والبصيرة والخيال ، وشغل الذات بأكملها ؛ وهو مجدد بمعنى أنه مزج العصر الرومانتيكي بالعصور السابقة فانتج نوعاً من الأدب لا يزال يجد الناس فيه لذة وجمالاً .

أما « بيرون » فمعروف في الشرق أكثر من أى شاعر آخر ، لأنه مات مجاهداً في اليونان . وقد انتشرت أشعاره وأخبار حياته عن طريق الصحف والمجلات انتشاراً واسعاً ؛ ولا نرى لشهرته سبباً سوى أن حياة الرجل كانت مليئة بالحوادث المستغربة . فمن منا لا يستغرب كراهية ابن لأمه إلى حد أنه تجنب رؤيتها ووداعها يوم سفره ؟ ألا يعجب المرء من أم تعير ابنها طيلة حياته معها بعاثته ؟ ومن منا لا يحب أن يسمع قصة شخص تمرغ في أحوال الرذيلة أعواماً ، ومع ذلك كان في ذاته رجلاً عظيماً وشاعراً كبيراً ؟

أما شعر « بيرون » فيعكس لنا نقمته على المجتمع ومحاولته أن يرد الإساءة والمرارة التي أصابته من الناس . ولولا تأثير صديقه « شلى » عليه ما كتب تلك القصائد الفريدة ، كوصفه لجبال سويسرا الشاخنة التي يحبه الناس حتى اليوم من أجلها . فقد حبيب له صديقه « شلى » الطبيعية وهذا قليلاً من نفسه الثائرة ، ومع أن « شلى » نفسه لم يكن أقل ثورة من صديقه ، إلا أنه كان يختلف عنه في دماثة الخلق ، ولطف المعاملة وهدوء الطبع .

وأكثر ما كتبته « بيرون » كان نتيجة تلك اللحظات القليلة التي كان الشاعر يختلي فيها بنفسه ويناقشها الحساب . وكان كلما مرت عليه فترة من الزمن يجلس هادئاً مفكراً ويستعرض أيامه الأخيرة فيجدها قد ذهبت هباء في أعمال لا يحبها ولا يرى لها نفعاً ، إنما هو يندفع إليها فراراً من الألم ورغبة في العزاء والسلوان . ويحاول أن يتخذ

طريقاً أخرى تؤدي به إلى إقناع العالم ببطولته وعظمته ، رغم ما يظهر في سلوكه من الانحطاط ، وكلما حاول أن يقلب صفحة جديدة في حياته وجدها لا تمحو ما سبقتها من سيئات ، وأخيراً اهتدى إلى ناحية من الحياة مليماً نداء الحرية .

ولما كان من الأغنياء في نهاية حياته استطاع أن يساعد اليونان بماله وخططه وأعماله ؛ وأصبح من كبار المحسنين ، وقد ارتفعت أخلاقه بارتفاع هدفه وأصبحت على غير ما كانت عليه ، فقد كان في آخر أيامه هادئاً مفكراً يعطف على الناس جميعاً ويعنى بالناس جميعاً ، يخدم المريض ويؤاسى الحزين . وأخيراً كف عن نظم الشعر لأنه لم يكن يعدّه شيئاً يذكر بالنسبة للمسؤولية الأخرى التي اختارها .

هذا الرجل الذي حقق العالم عليه ، وكرهه لطيشه وسوء سلوكه واستهتاره ، أصبح بعد تلك التضحية العظمى التي قام بها في اليونان شاعراً عظيماً وبطلاً شهيداً^(١) .

(١) انظر كتاب « بيرون » في سلسلة اقرأ .

٤ - تنيسون وبروننج

١٨٠٩ - ١٨٩٢ * ١٨١٢ - ١٨٨٩

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ظهر شعراء كثيرون أشهرهم « الفرد تنيسون » و « روبرت بروننج » . وقد اجتمعت فى هذين الشاعرين الكبيرين جميع عناصر الشعر السابقة ؛ فهما من حيث الأسلوب والتفكير لا يشبهان أى شاعر من شعراء الماضى ، كما أن النزعة الرومانتيكية المنعكسة فى شعرهما ليست من النوع البسيط ، وأدهما يمثل روح العصر أحسن تمثيل . وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر انتقلت انجلترا إلى حضارة جديدة ، مستندة إلى الاكتشافات والاختراعات العلمية الخالصة . ولقد توحدت تلك الأفكار والآراء المبعثرة فى السياسة والاجتماع والفلسفة ، ونشأ عنها نظام قوى متين هو نتيجة اختبارات الماضى ومجهودات المفكرين فى جميع العصور .

ولد « تنيسون » سنة ١٨٠٩ ومات سنة ١٨٩٢ ، وقد عاصر « داروين » و « جلادستون » و « لىكولن » وغيرهم من العظماء وتأثر بما تأثروا به من مزايا العصر ، وكان صديقاً لكثيرين من الشعراء الذين تحدثنا عنهم أمثال « وردزورث » و « شلى » . ولما كانت حياته طويلة فقد تمكن فى أحداثه من اكتشاف أخطائهم

وإدراك حدودهم فاتخذ لنفسه طريقاً جديدة أدت به إلى التعبير عما قصر عنه زملاؤه في الماضي وأتحف بلاده والعالم بقصائد خالدة ترفع النفس إلى موطن السعادة والجمال . وأهم ما في « تنيسون » أنه ليس بثائر سلبي يرمى إلى مجرد الهدم فيما يكتب ؛ بل هو معلم ومرشد وفيلسوف يرمى إلى الإصلاح بطريقة إيجابية فعالة ، ويدعو إلى الترفع عن الدنيا ويوجه الأفكار إلى الحياة الفضلى السامية . وقد أدرك ببصيرته أن ثورة « شلي » و « بيرون » على التقاليد وحدها لا تكفي ، بل لا بد من وضع شيء أسمي في مكانها إذا ما أزيلت ، وتوجيه الأنظار إلى مثل عليها هي سعادة الإنسان ونشر السلام واطمئنان النفس .

وقد اختبر « تنيسون » حياة جميع الطبقات ، فقد ولد في مزرعة « لنكلنشير » ودخل جامعة كمبردج ، وعاش عدداً كبيراً من الناس ؛ وفي سنة ١٨٥٠ عند ما توفي الشاعر « ورد زورث » عين « تنيسون » مكانه فحبر حياة القصر في عصر الملكة فكتوريا ، وبعد أن تولى هذا المنصب نظم قصائد عديدة أقبل عليها الجمهور أيما إقبال .

واشتهر « تنيسون » في الشعر الغنائي والملاحم ، وأشهر ملاحمه قصيدة « الأميرة » ؛ وهي قصيدة طويلة تزيد على ثلاثة آلاف بيت ، وهي مجموعة خواطر في حقوق المرأة ومنزلتها ، وهو موضوع كان كما أنه لا يزال يشغل أفكار الناس ، ومن أحسن ما كتب « أناشيد الملك آرثر » وهي تدور حول قصة خرافية قديمة موضوعها الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة .

ولم يكتب «تيسون» في حياته سوى قصيدته «الذكرى» لكفى بها دليلاً على عظم شاعريته . فهي قصيدة أوحى بها الصداقة والحزن على عزيز مات وهو في ريعان الشباب . عرف «تيسون» صديقه «أرثر هلم» في جامعة كمبردج ، وهو شاب يقاربه في العمر فتحكمت بينهما عرى الصداقة والمحبة السامية ، ويظهر من القصيدة أن نزعتهما الفلسفية ونظرتهما للحياة كانت واحدة . واقد حزن «تيسون» على صديقه الراحل ؛ وعبر عن حزنه وشعوره العميق بهذه القصيدة الخالدة ؛ ولم تكتب هذه القصيدة بعد الفاجعة مباشرة بل بقي الحزن مستولياً على فؤاد الشاعر سنوات دون أن يفوه بكلمة ، وأخيراً جاشت نفسه بعواطفه الكامنة ، فأخرج للعالم قصائد الذكرى لتلك الصداقة الأبدية التي ملكت جوارحه وأنارت حياته ، وكان «تيسون» شديد الإيمان بخلود الروح . فأخذ يناجي روح صديقه ويكلمها كأنها تراه وتسمع أقواله ، والقصيدة ليست رثاء بالمعنى المألوف ، بل هي شرح لعواطف النفس في سيرها نحو الخلود ، وفي ارتفاعها عن عالم المادة والأوهام إلى الوجود الأعلى الذي لا تدركه الأفهام .

وفي سنة ١٩٢٥ أصدر الأستاذ «أنيس المقدسى» أستاذ الآداب العربية في جامعة بيروت الأميركية ترجمة عربية نظمها شعراً لأناشيد الذكرى ، وهي ترجمة واضحة ممتازة تعطى القارئ صورة واضحة عما كان يجول في نفس الشاعر الكبير «تيسون» من العواطف والأفكار ،

والكتاب يقسم إلى أربعة أناشيد كبرى هي نشيد الحزن ونشيد الرجاء
 ونشيد السلام ونشيد السرور ، ومن جملة ما أعجبنى بعض أبيات في
 فلسفة الحزن يقول فيها الشاعر : « إن الحزن الظاهر أشبه بحزن العبيد على
 سيدهم ، وأما الحزن العميق الصامت فكحزن الأبناء على والدهم العزيز »
 وهذه ترجمة الأبيات للأستاذ المقدسى :

أين حزنى الذى يرى فى نشيدى	وكلامى من حزنى المسكنون
هو عبد يرثى رثاء العبيد	سيداً قد عداه عادى المنون
يظهر العبد حبه وأساه	بيكاه ورنه وعويل
خاشيا بعد فقد مولا	أنه لا يرى له من مثيل
فهو يبكى خوفاً وهذا العويل	خارجى يقوى الغراء عليه
إنما ثم أدمع لا تسيل	ثم حزن لا شيء يدنو إليه
حزن أولاده اليتامى فها هم	فى خشوع الأسى العميق سكوت
ليس صوت لندبهم وبكاهم	بل تكاد الأنفاس منهم تموت
لا رنين ولا اصطحاب نحيب	غير أن الأحزان تملأ القلوبا
كلما شاهدوا مكان الحبيب	خاليا أوقد المصاب لهيبا

وكثيرة هي الأبيات التى يثبت فيها خلود الروح ، أقتصر على ذكر
 أربعة منها :

كل شيء فى الأرض سوف يزول	وكظل جميع هذى الجبال
يتشككن والشكول تحول	ثم تمضى كالسحب أو كالظلال

غير أنى للروح ألجا امتناعا وبها تنظر الهدى عيماى
 إن أودع فما وداعى وداعا أبديا مهما تقل شفتاى
 ويخاطب الإنسان قائلا :

فانهض الآن واطرد الشيطانا منك والشهوة التى فى الجنان
 وتقدم دوما وكن إنسانا وأميئن أصلك الحيوانى
 ويذم سىء الخلق فيقول :

الحقير الأخلاق بين الأنام أينما كان فى مراقى الوجود
 وارث الصولجان والأحكام ظاهراً وهو باطناً كالعبيد
 والقصيدة مليئة بالحكمة والفلسفة ، وتؤكد بأن النفس البشرية
 لا نموت بموت الجسد ، وهى دعوة إلى الناس عامة أن يطلبوا المعرفة
 التى تشمل مدركات الطبيعة وحقيقة النفس ، وطريق الوصول إلى
 هذه المعرفة ليس العقل وحده بل هو يقظة الضمير والإشراق الربانى .
 ومن أجل ما فى القصيدة شدة الإخلاص والعاطفة الصادقة الخارجة
 من أعماق نفس الشاعر .

وفى نفس الوقت الذى عاش فيه « تنيسون » نبغ شاعر كبير آخر
 اسمه « روبرت بروننج » ومات قبل « تنيسون » بثلاث سنوات .
 ورغم ما فى هذين الشاعرين من التشابه من ناحية الغرض والنزعة
 إلا أن أسلوبهما يختلف كل الاختلاف . فأسلوب بروننج معقد غاية
 فى التعقيد ، وترجمته إلى لغة أخرى تكاد تكون مستحيلة ، عدا

بعض قصائد جميلة حاد فيها الشاعر عن الغموض . ومن طريف ما يحكى عن غموضه أن « تنيسون » قرأ مرة قصيدة نظمها بروننج مطلعها « من شاء فليسمع قصة « سوردلو » آخر بيت فيها « من شاء فقد سمع قصة « سوردلو » — فقال تنيسون بعد أن جاهد طويلاً كي يفهم القصة : « إني لم أفهم سوى البيت الأول والأخير منها » ويحكى أن بعض أصدقاء بروننج قالوا له : « إننا قرأنا قصيدة لك ولم نفهم منها شيئاً . فنظر بروننج فيها طويلاً ثم ضحك وقال : كان الله وكنت أنا نفهم معناها فقط . أما الآن فالله وحده هو الذى يفهمها . . .

كان « بروننج » يكتب للطبقة العاملة المتعلمة فى الشعب ، بل كثيراً ما كان يكتب ما يجول فى خاطره سواء أفهمه أحد أو لم يفهمه . وقد تأثر باكتشافات علم النفس التى كانت تنتشر بسرعة فى أواخر القرن التاسع عشر ، فهو يدرس النفس ودخائلها ، ويحلل الأخلاق تحليلاً دقيقاً ، ويعرض الشخصيات المختلفة ويبدى رأيه فيها ، وهو لا يترك أى مجال للقارئ كي يحكم بنفسه على الأشخاص الذين يصفهم ، بل يسبقه إلى ذلك ويفرض عليه حكمه ، فتراه مثلاً يصف فنناً نابغة يجب فتاة جميلة ولكنها ضعيفة العقل ، صغيرة النفس ، ويبين لك كيف أن حبه لها أفقده سعادته وأتلف فنه . ويعمد إلى تحليل نفسية رجل قتل زوجته الجميلة والآلام

التي قاساها بعد فعلته ؛ ويصف نفسية رجل خبر العالم الآخر بعد موته ثم عاد ليعيش بين البشر مرة ثانية ؛ ويبين كيف تتغير نظرة هذا الرجل إلى العالم ، فيراه تافهاً بالنسبة لما شاهده في العالم الآخر ، ويشرح أخلاق طيب دجال ، وكيف أنه اهتدى فجأة إلى الاستقامة والدين يقول الأستاذ كرميان : أن « بروننج » لو كتب هذه الموضوعات نفسها بالنثر لكان أفضل ؛ وهذا صحيح لأن النثر يستطيع أن يتوسع في بحثه وأن يوضح فكرته بالأمثلة وأن يدعمها بالبراهين. أما الشاعر فهو مقيد بالأوزان والقوافي وطول العبارة وقصرها . ولعل أحد أسباب قلة ما يكتب من الشعر في العصر الحاضر بالنسبة للنثر في العالم هو أن الشعر أصبح لا يفي بالغرض المقصود . فالتحليل والأسلوب العلمى والدقة في التعبير والوضوح في البحث تتنافى والأسلوب الشعري الذي يعتمد على الشعور الشخصي والتأثر الفردي . فالبحث في فلسفة الحب بطريقة علمية هو غير ما يعبر به الشاعر الحب نحو محبوبته . ولسنا نقصد هنا أن نقلل من قيمة الشعر وأن نرفع من منزلة النثر ، ولكننا نقصد أن نقول إن الشعر لا يمكن أن يخدم سيدين ، وخير للشعر أن يبقى ذلك الشيء الجميل الذي يهز العواطف ويغذي القلوب . وإنا لنجد بين « بروننج » والفيلسوف العربي «أبي العلاء المعري» شبهة من ناحية أنهما استخدما الشعر كى يعبرا عن فلسفتهم وآرائهما ، وحاولا أن يعالما الناس عن طريق الشعر ، إلا أن المعري كان أوضح وأقل

غموضاً . على أنه رغم ما في شعر «بروننج» من الصعوبة التي تبهدنا في فهمه نرانا نطمئن إليه في النهاية ، ونعجب بأرائه وفلسفته ، فهو لا يعرف للتشاؤم معنى ؛ ويدعو إلى الثقة بالنفس والإقدام في المصاعب ويساعدنا على التمييز بين الخير والشر ، ويوجهنا إلى مثل الإنسانية العليا وقد كان لزوجة «بروننج» تأثير شديد عليه من ناحية الشعر ، فقد كانت هي أيضاً شاعرة عظيمة ، وقد بقي شعرها لمدة سنوات محبباً إلى الجمهور أكثر من شعر زوجها ، ولا يزال اسمها يذكر وشعرها يقرأ إلى وقتنا الحاضر . .

النثر

١ — هانت ، هازات ، لامب ، دى كوينسى

نعنى بالنثر الكلام الذى لا وزن له ولا قافية ، وإنما هو كلام مرسل يشبه الحديث الذى نستعمله فى حياتنا اليومية ، ويختلف عنه فقط من ناحية حسن السبك والدقة فى التعبير ، ثم هو يعالج الموضوعات بطريقة منظمة غرضها الإقناع بالأدلة والبراهين ، أى أنه لا يعتمد على إثارة العواطف والتأثير على النفس ، وجعلها تقبل الحقائق بدون شك أو تردد . والنثر على أنواع فهو إما مقالات أدبية انتقادية ، أو روايات وقصص قصيرة ، أو سير أشخاص . وكل من هذه الأنواع يقسم أيضاً إلى عدة أقسام . وقد امتاز القرن التاسع عشر فى انجلترا بكثرة الكتاب ووفرة المؤلفات النثرية . وقد ساعد على ذلك انتشار العلم والمخترعات وتشوق الناس إلى المعرفة ، فهو ولا شك عصر نهضة جديدة لم يسبق له مثيل فى القرون السابقة . فالنقد الأدبى كما نعرفه اليوم — إذا استثنينا بعض كتاب أمثال « دريدن » « وأديسون » الذين حاولوا ذلك فى القرن الثامن عشر — لا نجد فيه شيئاً يشبه ما قد أنتجه كتاب القرن التاسع عشر . فلقه بدأ النقد الأدبى الصحيح بمحاولة الكتاب أن يتجردوا عن عواطفهم الشخصية وينظروا للأمور نظرة نزيهة هادئة .

وأصبح السكاتب يتعمق في درس موضوعه من جميع نواحيه قبل أن يصدر حكماً جازماً ؛ ولا يلجأ إلى طريقة الشاعر في إقناع قارئه أو سامعيه . كأن يقول لهم : « هذا ما أعتقد فلا تسألوني لماذا ، ويجب أن تعتقدوا مثلي دون أن تطالبوني بدليل أو برهان » ، وكان الناقد السابق إذا تناول كتاباً أو مقالة كى يبدى رأيه فيها ينظر فقط إلى السيئات ، ويحاول تحطيم جهود كاتبها . أما الناقد الجديد فأصبح ينظر إلى الحسنات والسيئات معاً ، أو ربما حاول اكتشاف الحسنات وغيض النظر عن بعض السيئات ؛ ثم أن المقاييس الأدبية كانت محدودة ضيقة النطاق ، فإن لم تنطبق القصيدة أو المقالة عليها عدت تافهة ، فالناقد يقسو على المنقود ، ويحمل عليه لأنه لم يلزم القواعد التي كان يعتبرها المثل الأعلى في الأدب ، بغض النظر عن الموضوع أو جمال الأسلوب . وبعبارة موجزة لم يكن في النقد أى نوع من العطف أو التقدير لصعوبات السكاتب .

ومن زعماء النقد في النصف الأول من القرن التاسع عشر « كولردج » ، « وهانت » ، « وهزلت » « ولامب » « ودى كوينسى » وقد أقيمت الصحف والمجلات على نشر كتابات هؤلاء الكتاب وشجعتهم على الاستمرار في نزعتهم الجديدة .

أما « كولردج » فنكتفى بما قلناه عن أدبه في فصل سابق ؛ وهو أميل إلى ناحية الشعر منه إلى ناحية النثر . أما « هانت » و « وهزلت » فكان غرضهما نشر الأدب ومساعدة القراء على فهمه فهما صحيحا ؛ وقد

مالا إلى تحليل أدب كتاب عصر الملكة اليصابات ؛ وتقريبه من أذهان الناس ، فكان عملهما التلخيص والتعليق على ما كتب في هذا العصر خاصة والعصور الأخرى عامة . وقد أفادوا كتاب العصر وأحيوا ذكرى من كاد ينساهم الناس في العصور السالفة ؛ ولم يقتصر عملهما على ذلك ، بل حاولا البحث في موضوعات سياسية واجتماعية كانت تشغل عقول الناس في ذلك الوقت : وقد أصدر « هانت » مجلة بقيت تخدم البلاد عدة سنين ، ولم يكن ينشد من وراء هذه الجهود سوى خدمة بلاده وإصلاح ما قد فسد ؛ ومن يقرأ أو يتصفح كتاباته يعجب كيف يمكن عقلا بشريا أن يحوى ما حواه عقله من معلومات . ولقد كتب شعراً ، ولكنه لا يعد من الشعراء الكبار ، وإن كان بعض شعره لا يزال يقرأ ويعلم في المدارس ، ولقد كان له تأثير على الصحافة من ناحية تبسيط اللغة وتنويع الموضوعات والنزاهة في النقد .

أما « هزات » فيشبهه « جان جاك روسو » من بعض النواحي ، فهو يسعى إلى تحرير الأذهان من المعتقدات السخيفة ويدعو إلى التحرر من القيود ، والتمسك بالمبادئ إلى النهاية . وقد كان عمله الرئيسى النظر في حياة الأشخاص ، وإظهار ما ينطوون عليه من قوة أو ضعف فهو يدينهم ولكن بدون أن يتحامل عليهم في أغلب الأحيان ؛ أو يقتصر على ذكر سيئاتهم ، فالأدب في نظره ملك للناس ، وما الكاتب سوى الوسيلة لنشره . فأحكامه إن هي إلا أحكام على الأدب ، وإن أصاب الكاتب شيء من قسوة هذه الأحكام فإنما يرجع ذلك إلى

صراحة الناقد وشدة إخلاصه . وهو بأسلوبه إنما يمهّد السبيل للتحليل النفسى الذى جاء فى أواخر العصر . وقد عني « هزات » بنقد المسرح ولا سيما الروايات الهزلية . ولم يكن محبوباً لدى زملائه الكتاب لأنهم كانوا يكرهون التعرض لنقده الصارم . وقد تزوج مرتين ، ولكنه لم يكن موفقاً ، وهذا ليس بغريب على من وقف حياته على نقد الناس فلم يسلم من نقده أحد . وقد كان مغالياً فى هذه الناحية ، ولكنه مع ذلك لا يزال يعد من أولئك الكتاب الذين كان لهم الفضل الأكبر فى توجيه النقد الأدبى والرفع من مستواه .

وبعكس « هزات » تماماً كان « لامب » كاتباً وديعاً محبوباً ، فهو لم يتعرض للنقد بمعنى الغرلة ، بل اتخذ وجهة أخرى حميدة لدى القراء ، وقد أحب الناس وأحبوه . وكان يقول : « إن أسعد أوقاتي هى تلك التى أقضيها جاثلاً فى الشوارع المكتظة بالناس أرقبهم وأتمتع بمشاهدة الحياة المتدفقة فى حركاتهم » . وعندما يعود إلى بيته يجلس منشراح الخاطر يدون ما يخطر بباله ؛ ويصف أفراس الناس وأحوالهم دون أن ينتقدهم أو يسخر بهم ، ولم يكن غرضه الإصلاح أو تغيير عقول الناس ، بل كان غرضه أن يصور عواطفهم وأفكارهم وآمالهم ، دون أقل تدخل من ناحيته ، فهو كالرسام الذى يرسم ما يراه تماماً دون أن يحاول استبدال شىء أو إصلاح شىء ، وهو يشبه « وردزورث » من حيث إنه لا يرى فى الحياة شيئاً لا يستحق اهتمامه أو لا يصلح موضوعاً لأدبه ، ويصفه دون أن ينتقده أو يحاول إصلاحه . وعني « لامب » بوصف الأدباء

وأسلوبهم وحياتهم في مقالات عديدة ، وكان غرضه من ذلك تشويق الجمهور كي يقبل على أدبهم ، ويمتاز أسلوبه بأنه خال من التحامل بعيد عن المجاملة والتكلف ، ولا يتعمق كثيراً ولكنه يعطف كثيراً ، فتراه ينتزع الصفات البارزة من حياة الأشخاص وكتاباتهم ويعرضها في مقالات قصيرة تلذ للقارىء ، ولا تتطلب من جهده سوى القليل . ومن كتبه التي يستعملها الطلاب في المدارس كتاب اسمه « قصص روايات شكسبير » يلخص فيه حوالى عشرين رواية لشكسبير بأسلوب شائق ممتع . ويمتاز أسلوب « لامب » بالفكاهة وخفة الروح . وهو لا يقلد أحداً ولا ينقل عن أحد ، فأدبه صادر عن نفسه المرححة الشاعرة المبتكرة ، وهو لا يشبه أحداً من كتاب النثر في عصره ، ولم يكن من السهل على الكتاب المحدثين تقليده .

أما « دى كونسى » فقد تجلت فيه النزعة الرومانتيكية أكثر من أى كاتب آخر معاصر له ، وإنا لنجد في حياته عبرة ظاهرة نستخلصها من كتابه الذى سماه « اعترافات آكل الأفيون » . فقد تعاطى هذا الكاتب الأفيون سنين عديدة ، وكتب عنه عن خبرة ومعرفة وبطريقة لم يسبقه إليها أحد . وبسبب تعاطى الأفيون الذى أتلف حياته فى النهاية كانت كتاباته فى أغلب الأحيان تبحر للخيال . فتشعر وهو يتحدث إليك كأنه يصف لك أحلاماً لا تستطيع أدراك كنهها . ولكنك مع ذلك تحب أن تقرأه وتود لو أنك تفهمه كما يجب أن تفهمه ، وربما وقفت فى كثير من الأحيان موقف المشكك المتردد

في أن تصدق ما يقول أو لا تصدق ، إلا أن أسلوبه يرغمك على حبه حتى ولو لم تفهمه أو لم تصدقه ، لأنه موسيقى جذاب ، وكتابه صادرة عن نفس مندفعة لا تعرف الحذر والتردد . وهو يُقرأ اليوم من أجل لغته وأسلوبه لا من أجل الاستفادة من إيمانه وأفكاره .

أما سبب تعاطيه الأفيون ، فيعود إلى محاولته تخفيف الألم الناتج عن مرض أصابه في رأسه ووجهه ، فهو يقول في اعترافاته : « تناولت الأفيون في ربيع أو خريف سنة ١٨٠٤ حين عدت إلى لندن لأول مرة ، بعد أن التحقت بجامعة « أكسفورد » ، وهاك سبب تعاطيه : « تعودت منذ طفولتي أن أغسل رأسي بالماء البارد كل يوم مرة واحدة على الأقل ، فشعرت يوما بألم في ضرسى عزوته إلى حال عصبية ناشئة عن إهمالي تلك العادة بعض الأحيان ؛ فنهضت من فراشى ودفعت برأسي في وعاء ملؤه الماء البارد ، ثم عدت مبتل الشعر ، ولا حاجة أن أشرح للقارئ ما نجم عن ذلك من الآلام التي عرّنتني بعد ذلك اليوم ، تلك الآلام التي أورثت رأسي ووجهي أسقاما حادة طفقت أعانيها عشرين يوماً لم تفارقني فيها هنية ، فما كان اليوم الحادى والعشرون (وكان يوم أحد على ما أذكر) حتى ضاق صدرى ، فخرجت هائماً على وجهي ، فصادت رفيقا في طريقى من طلبة الجامعة فأشار على بالأفيون . . . الأفيون ذلك الذى يعجز القلم عن أن يصور ماله من لذة علوية وألم جهنمى . . . يا لها من ذكرى شهية أليمة تضرب على أوتار قلبي فتبعث من آلامى وأشجاني » .

ومنذ ذلك الحين أخذ يزداد في الإقبال على الأفيون حتى أصبح عادة متأصلة فيه . بقي على هذه الحال يعاني من الآلام والأوجاع بسببها ما لا يستطيع أن يدركه سواه . وقد حاول في اعترافاته أن يشرح بعض آلامه وأوجاعه فهو يقول :

« أصبحت أخشى اقتراب النوم ، أخشى الخيالات المزعجة ، تلك الخيالات التي تشبه الكائنات الحية كل الشبه فتظل تخيفني وترعبني وتملاً ذهني بما يزعج . ثم زاد بي اضطراب في المعدة لم يلبث أن زاد قوة وتتابعاً » . وأخيراً قرر شفقة منه على زوجته وأولاده أن ينقطع عنه تماماً ولما كان له بقية من الإرادة نجح في تصميمه ، وهو مع ذلك يقول : « فزت . ولكن لا تستنتج أيها القارئ من كلمة « فزت » أنني وصلت إلى حالة تسر كثيراً ، بل يجدر بك إذا أردت أن تتبين حالي أن تتصورني شخصاً لا يزال في حالة اضطراب ، يتلوى من الألم وتشتد ضربات قلبه واضطرابات معدته وإفرازات عرقه وثورة أعصابه كرجل شد على آلة التعذيب » . وهو بعد كل ذلك يعلن للملأ قائلاً :

« أنني استعملت الأفيون ثمانية عشر عاماً كدواء لتسكين الآلام ثم استخدمته ثمانية أعوام أخرى لأبحث به عن أسباب السعادة ، فكانت نتيجة هذه الخبرة الشديدة أنه من المهلكات » . ومع أن نتائج الأفيون لم تتلاش تماماً بعد أن أقنع عنه إلا أنه يعترف أنه شعر منذ خرج من ظلمات الأفيون بنشاط الشباب ، وفتوة الفتيان .

٢ - ما كولى ، كارليل ، رسكن

ماثيو أرنولد

استعرضنا فى الفصل السابق عدداً من الكتاب والنقاد الذين عاشوا فى أوائل القرن التاسع عشر فى انجلترا ، وبيدنا كيف أنهم اتبعوا طريقة جديدة فى النقد ، وقلنا إنه بينما كان غرض الناقد فى الماضى تلمس الأخطاء ، والخط من كرامة الكاتب أصبح يسعى نحو الإصلاح بتشجيع الحسنات أولاً ، ثم الإشارة إلى الضعف بقصد رفع مستوى الكتابة وتوجيهها إلى أبعد ما يمكن الوصول إليه . وكان من جراء ذلك أن أقبل عدد كبير على الكتابة والتأليف ، فكثرت الإنتاج الأدبى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى حد لا يمكن حصره ، وأصبحت مادة النثر غزيرة ، ترمى إلى مثل العليا ، وذات علاقة وثيقة بحياة الناس والمشاكل العديدة التى يواجهونها .

وقد ساعد على هذا التطور أربعة أمور كان الشعب بأسره يسعى إليها ويطمح لتحقيقها : أولاً تلك النزعة الديمقراطية التى أصبحت الإنجليز يعتقدون أن لا سبيل للحياة الحرة بدونها . ثانياً ، نشر التعليم والتسامح الدينى والإصلاح الاجتماعى . ثالثاً ، الميل إلى السلم والطمأنينة والاستقرار النسبى فى داخل البلاد وخارجها ، والسعى لتوطيد عرى الصداقة مع الدول الأخرى ، ووضع البلاد فى ظروف سياسية واقتصادية

تضمن سعادة الأفراد واكتفاءهم . رابعاً ، تشجيع العلوم والفنون والاختراعات التي من شأنها أن ترفع مستوى المعيشة وتساعد على التقدم والإنتاج .

هذه العوامل الأربعة كان لها الفضل الأكبر في ظهور عدد من الكتاب يعدون اليوم من قادة الفكر ، وكان لهم في عصرهم أشد التأثير في توجيه الحياة الفكرية في القرن التاسع عشر ، وهم الذين مهدوا السبيل لازدهار الرواية في العصر الحديث .

ومن أعلام الكتاب في هذا العصر « توماس ما كولي » ؛ فقد كان كاتباً مصلحاً ، وخطيباً مؤثراً . وقد اتجه بكليته إلى معالجة الشؤون السياسية والاجتماعية في عصره . كان عضواً في البرلمان ؛ وهناك ظهرت مواهبه في خطبه ومناقشاته ، ولكنه عدا ذلك ترك ثروة أدبية يمكن الاستفادة منها حتى في وقتنا الحاضر ، ومن جملة ما كتب مقالات عديدة في حجم كتب صغيرة عن رجالات العصر أمثال « لورد كلايف » « وهيستنج » ؛ وعن عدد كبير من الأدباء أمثال « لورد بيرون » و « جولد سميث » ، وكتابه عن « تاريخ إنجلترا » لا يزال يرجع إليه ، وهو مؤلف كبير يحتوي على خمسة أجزاء ، ويضم معلومات دقيقة لا يمكن دارس التاريخ أن يتوصل إليها من المراجع التاريخية إلا بعد جهد عنيف ؛ وقد وصفه أحد الكتاب بقوله : « إن من يدرس ما كتبه « ما كولي » يشعر بأنه إذا تحدث في موضوع يكون

قد قرأ حوالى عشرين مجلداً قبل أن يتوصل إلى نتيجة أو يثبت حقيقة « ، فقد كان يقرأ بدون انقطاع ولا يكتب إلا بعد أن يكون قد درس الموضوع من جميع نواحيه . وقد حاول أن ينظم الشعر ، ولكن انشغاله فى البحث والتنقيب لم يسمح له بأن يكون من كبار شعراء العصر . أما أبحاثه فخالية من الخيال فهو يعرض الحقائق كما يراها أو يجدها فى مصادرهما دون تعليق أو مناقشة ، وخير ما عنده غزارة المادة وسعة الإطلاع .

ويعكس « ما كولى » الذى كان لا ينزع فى كتاباته نزعة فلسفية نجد كاتباً آخر ، كان ذا تأثير شديد على أهل عصره وهو « توماس كارليل » ؛ وهذا الكاتب معروف فى الشرق العربى ، فقد ترجم كتابه « الأبطال » إلى العربية ، وهو الكتاب الذى يدافع فيه عن الإسلام ويبين محاسنه .

لم يكن « كارليل » يهتم بالنواحي العملية الواقعية فى عصره ، إنما أفرغ جهوده فى الأبحاث الفلسفية الروحية التى من شأنها أن توضح علاقة الإنسان بالوجود ، وعلاقة الوجود بالخالق الأعظم ؛ وكان همه أن يدعو الناس إلى العمل بإخلاص ، وإلى القيام بالواجب عن مبدأ وعقيدة ، وكان يكره فى الناس المداينة والرياء ويدعوهم إلى الصراحة فى القول ، والصدق فى الفكر والعمل ، وقد ألف كتاباً عن الثورة الفرنسية ومقالات عديدة عن الأدباء ؛ ومن أحسن مؤلفاته كتاب

« فلسفة الملابس » الذى يحاول أن يبين فيه أن جميع مظاهر الإنسان الخارجية وجميع ما يتعلق بجسده إن هو إلا مظهر رمزى لروحه ، فإن هو اقتصر على المظهر الخارجى وعده كل شئ يفقد المعنى الحقيقى لحياته وهذا هو مصدر شقائه وتعبه .

أما كتاب « الأبطال » فهو مجموعة محاضرات عن العظماء الذين غيروا سير التاريخ وكونوا العالم بشكله الحاضر ؛ فالتاريخ فى نظره إن هو إلا سير هؤلاء الأبطال ، والعالم كله إن هو إلا نتيجة مساعيهم وتعاليمهم ، وهو بذلك يهمل حياة الجماهير والأطوار التى يجتازونها ؛ وهذا يخالف رأى علماء التاريخ فى هذا العصر الذين يعدون نشوء الأبطال فى الأمم نتيجة لماضيها أى أن الأمة هى التى تخلق العظيم ، وهو بدوره يسيرها ويرشدها ويسدد خطواتها .

وإننا نجد « لكارليل » شبيهاً فى نزعته نحو الخير والإصلاح فى الأديب الكبير « جون رسكن » إلا أنه يمتاز عن كارليل فى أنه كان أبعد نظراً وأكثر تفاؤلاً ، ولم يكتف « رسكن » بتقديم الاقتراحات للناس بل حاول أن يبحث فى الطرق الفعالة التى تؤدى بهم إلى الحياة الخصبية . ولم يكتف بذلك ، بل ضرب للناس مثلاً عملياً أعلى فى التضحية والإحسان ، وذلك بأن قدم جميع ما يملك من ثروة ومال للخير العام ، فأسس مدارس وأنشأ مكاتب عامة وساعد على رفع مستوى العمال . وكان يعتقد أن الوعظ وحده لا يكفي لتعليم الناس بل يجب أن يرى المبادئ التى

يدعون إليها مجسمة في أعمال البر والإحسان . وفوق هذا كان أديباً كبيراً ، وكانت كتيبه نتيجة لحياته اليومية وإحساسات قلبه الكبير ؛ ومن يحاول أن يقرأ « رسكن » بدون أن يفهم هذه الناحية العملية في حياته يفقد قيمتها الحقيقية ويضل السبيل . ومن أهم مؤلفاته كتاب عن الفن سماه « أنوار البناء السبعة » ، ورأيه في الفن أن الفن سواء أكان في البناء أم في أية ناحية أخرى يجب أن يتجرد عن التقليد وأن يكون صورة صادقة للطبيعة ونواميسها . والفن عند آية أمة من الأمم يعكس لنا قوة تلك الأمة وضعفها . وليس غرض الفن إشباع رغبات الموسرين والمثقفين ، بل خدمة البسطاء من الناس والترفيه عنهم في حياتهم اليومية . وبعبارة أخرى يعتقد « رسكن » أن الفن يجب أن لا يكون للفن كما يقولون ، بل يجب أن يساعد الناس على التقدم وأن يرمي إلى إسعاد أكبر عدد ممكن في العالم .

كان هدف « رسكن » في حياته أن يبين للناس أنهم يستطيعون أن يعيشوا حياة أسعد وأخصب — إذا شاءوا — وأن كل إنسان يستطيع مهما كان عمله اليومي أو مهنته أن يتمتع إلى حد ما بالنواحي العليا في الحياة كالآدب والفن والموسيقى ، ويجعلها تؤثر في نفسه وفي علاقاته مع من حوله من الناس .

ومن زعماء الفكر في هذا العصر أيضاً « ماثيو أرنولد » ، وهو أقرب إلى « كارليل » في أسلوبه وطرق تفكيره منه إلى « رسكن » ، فقد

كانت نزعة الشك تسود الاثنين، وآثارهما الأدبية تعكس لنا الحيرة من جهة والحماسة للتعبير عن أية عقيدة توصلنا إليها بعد جهاد عنيف من جهة أخرى . وهذه هي إحدى مميزات القرن التاسع عشر ، فالعلم فيه أثار القلق والشك في النفوس ، وأصبحت كل حقيقة يكتشفها الناس مدعاة للجدل والبحث والمناقشة . وكثير من الحقائق التي نعلمها اليوم في المدارس بمنتهى البساطة والاضمئنان أخذت في ذلك الزمن دوراً هاماً وكونت حولها أدباً يعد بالنسبة لعصره راقياً .

وكتابات « ماثيو أرنولد » خاصة تعكس لنا نفساً حائرة مترددة بين الشك واليقين ، بين العقل والعاطفة ، ويحاول أن يكون مؤمناً في قلبه ، وفي الوقت نفسه يلح عليه عقله مطالباً بالدليل والبرهان العلمي ، وتراه من وقت إلى وقت يحاول التفلت من العقل لاجئاً إلى القلب ، حيث كان يجد هناك راحة مؤقتة ، ولكن جميع ما حوله من علم وأدب وتفكير لم يكن يسمح له بالراحة طويلاً ، فيعود إلى البحث والتساؤل والنشاط الذهني . لذا فإن شعره لم يكن صادراً من القلب والعاطفة ، بل هو أقرب إلى النثر ، فهو يحلل ويقارن وينتقد ويكثر من الأمثلة والتشابه حسب طريقة « هوميروس » اليوناني ؛ ويخاطب العقل لا العاطفة . ولكنه رغم هذه النزعة التي تتجاوز حدود الشعر وإمكانيته أنتج لنا قصائد ممتازة ولا سيما تلك التي تتضمن قصة ، ومن أشهر هذه القصائد قصة « سوهرب ورستم » ، وهي قصة فارسية خرافية ومصدرها

الشاهنامة للشاعر أبي القاسم الفردوسي ، وخلاصتها أن « سوهرب »
نشأ بدون أن يعرف عن أبيه رستم سوى ما كان قد سمعه عنه من أمه ،
وأصبح غرض الصبي أن يبحث عن والده . وأخيراً التقى الأب والابن
في معركة وتبارزا دون أن يعرف الواحد منهما الآخر . فتغلب رستم على
على « سوهرب » وطعنه طعنة مميتة . وفي اللحظات الأخيرة اكتشف
رستم أن ذلك الشاب هو ولده ، وكان دليله على ذلك تلك العلامة التي
كان قد أعطاها لزوجته قبل سفره ويكتشف الفتى أباه ، ويكون بينهما
حديث هو مزيج من الحزن والأسف والاستسلام لحكم القضاء .

وقد كتب « أرنولد » عدة كتب ومقالات أعجب بها القراء في ذلك
العصر واستفادوا منها . وقد كانوا يرتاحون إلى نثره أكثر مما كانوا
يعجبون بشعره . فنزعته الكلاسيكية اليونانية ، وميله للمقايضة والانتقاد
وحبه للأسهاب كل ذلك كان أكثر ملاءمة لموضوعات النثر .

ويجب أن لا يفوتنا أن نذكر أثر « أرنولد » في التعليم ، فقد
اشتغل مدة خمس وثلاثين سنة مفتشاً بالمدارس الحكومية وله آراء
في التعليم ناضجة .

الرواية

٣ — ديكنز ، ثاكرى ، جورج اليوت

من أهم أنواع النثر فى القرن التاسع عشر — الرواية ؛ ولنشوء الرواية وازدهارها أسباب هامة ، تعود كلها إلى تغير الحياة وتبدل طرق المعيشة فى الفترة التى بين الثورة الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وتقدم العلم والاختراع والاكتشاف فى القرن التاسع عشر . ولقد وجد الكتاب بالاختبار أن الشعر وحده لا يكفى للتعبير عما فى نفوسهم من خواطر وما تدركه عقولهم من غرائب . وكأنهم بذلك قد اكتشفوا الإنسان من جديد ، وبدءوا يرون فيه ما لم يكونوا يستطيعون رؤيته من قبل ، فكيف يفسرونه ، وكيف يصفون شعوره وأفكاره ، بل كيف يحللون بواعث نفسه وأعماله ؟ . هذا الخلق العجيب المركب من عناصر متكاثفة متشابكة لا يمكن تفسيره أو التعبير عنه إلا بأسلوب متكاثف متشابك . بالشعر يستطيعون التلميح إلى الحقائق وإثارة الرغبة فى النفوس كي تصبو إلى عالم الجمال والحقيقة ، وبالمقالات يستطيعون درس بعض النواحي الظاهرة فى المجتمع ، ولفت النظر إلى عوامل الهدم والبناء والتمييز بين الخير والشر . أما الرواية فهى الوسيلة الوحيدة لدرس الأخلاق والعواطف البشرية مهما كان نوعها ، وفى الرواية يستطيع الكاتب ملاحقة الفكرة وسبر غورها وإظهارها فى صور متعددة

دون أن يكون مقيداً بالوزن أو القافية أو بطول المقالة أو قصرها ؛ فأسلوب الرواية مرن مطاط ، يحتمل الشرح والتفصيل ، والنقد والتحليل ، ويجمع بين الخيال والواقع ، وهو في نفس الوقت مدعاة للتسلية ومن أحسن الوسائل للترفيه عن النفس .

بدأت الرواية بشكل بسيط جداً في القرن السابع عشر ، فقد كان الكاتب يتناول شخصية واحدة في الرواية ويلاحقها ، وكان يعنى بعاطفة واحدة بسيطة كالغرام أو المخاطرة . ولم تكن لتعنى بالأفكار العميقة أو النواحي المعقدة في حياة الناس . ولكن تقدم التجارة والصناعة والاقتصاد وما نشأ عنه من تقدم في العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، زد على ذلك تلك الثروة الفكرية التي خلفتها العصور السالفة ، كان من شأنه أن يوجه الرواية إلى معالجة الموضوعات أو المشاكل التي كانت تشغل الأذهان في ذلك العصر . وأصبحت الرواية متعددة الأنواع مختلفة الأغراض والنواحي ؛ منها التاريخية ، والواقعية ، والتخيلية ، والتصوفية ، والوطنية ، وكثير منها يجمع بين هذه الأنواع المختلفة . ومن الصعب أحياناً تحديد نوع الرواية ، فقد يلجأ الكاتب للتاريخ كي يعالج قضية اجتماعية ، أو للخيال كي يثبت حقيقة فلسفية . فروايات « سكوت » التاريخية مثلاً تعرض علينا شخصيات من رجال ونساء عاشوا في الماضي ، ولكن المبادئ التي كانت تسير حياتهم هي نفس المبادئ التي تسير حياة الأفراد في كل

عصر وفي كل جيل . والمشا كل التي عاجلها « ديكنز » في رواياته الاجتماعية هي نفس المشا كل التي نعالجها اليوم .

ومن زعماء الرواية في ذلك العصر الذين استطاعوا أن يوجهوا الرواية توجيهها خاصاً نذكر ثلاثة هم : « ديكنز » و « ثا كرى » وسيدة عرفت في عالم التأليف « بجورج أليوت » .

أما « ديكنز » فمعروف لدى قراء العربية أكثر من غيره ، وبعض رواياته ترجمت إلى العربية وبعضها يعرض من وقت إلى وقت في دور السينما . وأنه لمن حسن الحظ أن اهتم العرب بهذا الكاتب خاصة لأنهم يستطيعون أن يجدوا في رواياته ما يصبون إليه من إصلاح اجتماعي . فهو يعالج مشا كل اجتماعية هامة كالفقير والأولاد والعمال . ولا يكتفي بالنقد والتحليل وعرض الحالة كما هي ، بل يتلمس لها العلاج ويسهب في إبداء الاقتراحات والحلول في أسلوب شائق جذاب . ومن أحسن رواياته « ديفد كبر فيلد » التي يعود فيها إلى حياة طفولته ويبين نقائص التربية والمحيط ؛ وهي تاريخ حياة الكاتب ، وكيف توصل بعد السعى والجهاد أن يصبح كاتباً . ثم قصة رائعة أخرى هي « قصة المدينتين » ، وحوادثها تقع بين لندن وباريس في زمن الثورة الفرنسية ، ورواية « أولفر توست » التي تصور الفقر تصويراً رائعاً . وهو يهتم المجتمع لما يلاقيه الفقراء من شقاء في هذه الحياة ، وفي رواية أخرى ينتقد المدارس وأساليب التعليم ، وهنا لك عدة روايات أخرى يتناول في كل

منها ناحية من نواحي المجتمع ، وغرضها جميعاً أن تعطينا صورة عن العصر
والمشاكل التي نشأت بسبب الثورة الصناعية في أوربا ، ومهما يكن في
هذه الروايات من المغالاة فإن الحقائق تظهر فيها واضحة صريحة ، والعلاج
الذي يقترحه الكاتب يدل على سعة اطلاع وبعد نظر .

أما الكاتب الثانى « ثاكرى » فيختلف عن « دكنز » في
أنه لم يواجه الصعوبات التي واجهها ديكنز في حديثه ، فقد تعلم في
أحسن المدارس الإنجليزية ، وكان لا ينقصه شيء من المال والأصدقاء
والرفاهية . فنشأ لا يفهم للفقر معنى ، ولا يقدر حياة البسطاء من
الناس ، لذلك فإن رواياته تميل إلى وصف الطبقات الموسرة وما فيها
من مشا كل ، وهو أكثر واقعية في نظريته وأسلوبه من دكنز ،
إذ أنه يصف ما يقع تحت نظره من مشاهد ولا يترك فرصة تفوت دون
أن يهدى ملاحظة ساخرة ، ولا يحجم عن إظهار استيائه مما يشاهده
في الطبقات الموسرة من تصنع ونفاق ، وعجب وخيلاء ، وقد لا نعدو
الصواب إذا قلنا إن روايات « ديكنز » « و ثاكرى » تكونان معا صورة
واضحة لجميع الطبقات في المجتمع الإنجليزي في أواسط القرن التاسع عشر .
ولد « ثاكرى » في الهند وانتقل مع أمه عند ما بلغ الخامسة إلى
انجلترا ، وأدخل مدرسة راقية فيها ، وفي رواية من رواياته يعطينا
صورة تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي يعطينا إياها « ديكنز »
عن مدرسته ، ولو أن « ديكنز » وجد في مدرسة « ثاكرى » لوجدها

جنة بالنسبة للمدارس التي عرفها وحاول أن يصلحها ، ومع ما كان في هذه المدرسة بالنسبة لمدارس الطبقات الفقيرة من الحسنى في معاملة الأولاد ، إلا أن « ثاكري » ينفر منها إذ يقول لأمه في رسالته منه إليها « يوجد في المدرسة ثلثائة وسبعون طالباً ، ليتهم كانوا ثلثائة وتسعة وستين » . من هذا يتبين لنا أن أرقى المدارس لم تكن في ذلك العصر مما ترتاح إليه نفوس الطلبة ، وعند ما نقابل حالة المدارس اليوم بما كانت عليه قبل مائة سنة نعجب لهذا التقدم السريع وهذا الانقلاب الهائل الذي لم يعرف له مثيل في التاريخ .

كان « ثاكري » واسع الاطلاع على كل ما له علاقة بالقرن الثامن عشر في إنجلترا ، وأكثر رواياته ولا سيما رواية « هنرى اسموند » تعطينا صورة واضحة عن العصر . وثاكري كما قلنا واقعى الأسلوب ، فهو يصف أشخاصاً عاشوا ولعبوا أدواراً في حياتهم . وهو يحاكمهم ويتعمق في درس دوافع أعمالهم ، ويعطينا معلومات طريفة عنهم لا يتعرض التاريخ لها . وتراه يلاحق شخصيات رواياته ويصف حياتهم اليومية برقة ووضوح ، فيشعر القارئ كأنه كان يعيش معهم في ذلك الوقت ، يتبعهم إلى القهوة وأوقات الطعام ، وغرف النوم والجلوس ، ويسرد أحاديثهم في ساعات الراحة ويكاد يدخل إلى أعماق قلوبهم بعطف واحترام ، ولكن بدون تساهل أو مجاملة . فهو يمزق حجب أفكارهم وفلسفاتهم التي تخفى حقيقة نفوسهم ، ويزيل

ذلك الوهم الذي ينشأ في كثير من الأحيان في رؤوس الناس عنهم بسبب الشهرة التي يتمتعون بها . ويرينا إياهم أشخاصاً عاديين من لحم ودم . أما الناحية الغرامية في رواياته فهادئة رزينة إذ أنها ليست الغرض من الرواية . وعند ما يذكر اسم « ثاكرى » يذكر معه روايته الخالدة واسمها « سوق الغرور » . حيث يصف فيها أباطيل الناس وترهاتهم وسخافتهم ، وعدة روايات أخرى تحاول وصف الأشخاص والأحوال في الطبقات الراقية في إنجلترا في العصور المختلفة . وطريقته في الإصلاح تختلف عن طريقة « ديكنز » إذ أن « ثاكرى » يكتفى بالنقد والتهكم وإظهار السخط ببراعة ، ولولا ما في رواياته من الفكاهة لكانت جد متعبة ، بسبب تعدد الصور وكثرة المعلومات التي فيها .

أما « جورج إليوت » ، واسمها الحقيقي « ماري آن إيفانس » فهي تمثل نوعاً من الروائيين الذين مالوا إلى التحليل النفسى ، وهي تضحى الفن في سبيل اكتشاف نوااميس الحياة الأدبية ومعالجة المشاكل بطريقتهم العلمية أو ما يشبهها . وغرضها من ذلك تعليم الناس وإرشادهم . وأكثر رواياتها مقتبسة من حياة القرية في إنجلترا . فهي لا تعالج المشاكل التي يعالجها « ديكنز » ولا تعباً بحياة الطبقات الراقية كما فعل « ثاكرى » ، وإنما تحاول درس حياة القرويين الذين عرفتهم وعاشت بينهم . وهي تشبه « بروننج » في نزعتها الأدبية أى أنها تحاول أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفس البشرية ، وبعد أن تعرض خفاياها وعواطفها وبواعث أعمالها تستخلص منها قوانين عامة . ولا تترك القضية

إلا بعد أن تكون قد تأكدت تماماً أن القارى قد أدرك ما تريد وفهم الحقيقة التى تريد إيصالها إليه ، وعند ما تتعرض لوصف الأشخاص تعلق على الوصف إلى حد متعب ممل ؛ وهذا ما جعل بعض من جاءوا بعدها من الكتاب يتبعون طريقته فى التحليل ، وينبذون أسلوبها التعليمى تاركين القارى يكون فكرته الخاصة عن الحوادث والأشخاص . ولكننا لا نستطيع أن نلوم « جورج إليوت » على طريقته ، لأن تطورات عصرها كانت تقتضى هذا التعليق . أما فى العصر الحاضر فكثيراً ما يلجأ الكتاب للمقدمة كي يوضحوا أغراضهم ؛ كما يفعل « برناردشو » الذى تسكاد مقدماته تكون أطول من كتبه ، ولعل أحسن مثال على شخصياتها الفلسفية وطريقته فى تحليلها شخصية الخائنك الشاذ الطباع الذى لم ير فى الحياة غرضاً سوى جمع المال ، ويصبح ذلك المال الذى ادخره أعز شىء لديه فى الحياة ؛ وفى أحد الأيام يفتقد ماله فلا يجده ، فيعرف أنه سرق ، فتذهب نفسه حسرات ، وتقف حياته ويسوده جو من الغم والقنوط . ويتصادف أن تلجأ إلى بيته فتاة صغيرة يبدو البؤس عليها ويظهر التشرد على شكلها ، فتأخذه عاطفة من الحنو عليها والرثاء لحالها ، وتدب فيه الحيوية من جديد ويصبح إنساناً آخر ، فيعجب الناس منه كما يعجب هو من نفسه .

هؤلاء الروائيون الثلاثة — ولكل واحد منهم أسلوبه وغرضه المختلف عن الآخر — اتخذوا الرواية وسيلة لخدمة بلادهم ، ولم يقدموا على الكتابة إلا بعد أن حددوا غرضهم وأعدوا له كل ما يلزم من درس واختبار .

٤ — جورج مردث ، توماس هاردى

رد يارد كبلنج

قلنا فى الفصل السابق إن الأحوال السياسية والاجتماعية فى إنجلترا استلزمت وجود أسلوب آخر غير الشعر والمقالات ، فكانت الرواية هى ذلك الأسلوب ، وجئنا على ذكر بعض الروائيين الذين ساعدوا على توجيه الرواية كى تكون وسيلة ناجحة من وسائل الإصلاح والنهوض بجميع الطبقات إلى حياة أسمى ، بقى هذا العمل الأدبى العظيم يسير بخطى ثابتة إلى وقتنا الحاضر ، وقد ساعدت الاختراعات الحديثة كالسينما والراديو على تقدمه وازدهاره بأشكال وصور مختلفة .

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، ظهر فى إنجلترا روائيون أحبهم الناس واستفادوا منهم لا فى انجائهم وحدها بل فى العالم أجمع ، وسبب ذلك هو أن أفق رواياتهم لم يعد ضيقاً كما كان ، وموضوعاتهم لم تقتصر على نقد أحوال المجتمع الذى يعيشون فيه ، بل أصبحوا يطرقون موضوعات عالمية يهتم بها الشرق والغرب على السواء ، ولم يقتصروا على وصف مشاهد بلادهم بل تعدوها إلى كل ناحية من نواحي الأرض ، فالصين وأحوالها ومشاهدها فى نظرهم ليست أقل أهمية من أحوال بلادهم ومشاهدها ؛ وقصص ألف ليلة وليلة مثلاً تصلح لأن تكون جواً مبهجاً لرواياتهم . ولم يتركوا مهنة أو عملاً إلا ألفوا

حوله قصة ، وأخذوا يهتمون بحوادث التاريخ صغيرها وكبيرها ويربطون الماضي بالحاضر بطريقة فنية رائعة . وقد ساعد على هذا كله سرعة العصر وتقريب الأبعاد ووسائل السفر وتوسع التجارة بين الأقطار والعلاقات الدولية والإقبال على المطالعة وسهولة الطبع والنشر إلى غير ذلك من الأسباب .

ومن زعماء الرواية في أواخر القرن التاسع عشر « جورج مردث » و« توماس هاردى » و« رديارد كبلنج » ، وكل من هؤلاء يمثل مدرسة خاصة وله أتباع ومقلدون . « فردث » يميل للغموض فيما يكتب ويمزج الجدل بالهزل ، وقد حاد عن طريقة « جورج أليوت » ، فهو رغم ميله إلى طريقة التحليل النفسى نراه ينفر من الجدل المتواصل ويميل إلى الهزل والمداعبة ، ولا يتدخل قط بين الرواية والقارى بل يترك بطل الرواية يعلن عن قصده ، وهو متفائل يحسن الظن بالحياة البشرية ويعتبر الشر خطوة لا بد منها فى سبيل التقدم والرقى .

وبعكس « مردث » تماماً نجد الكاتب الكبير « توماس هاردى » فهو بسيط العبارة سهل الأسلوب ينفر من التعقيد والغموض ، واقعى النزعة فى جميع ما كتب ، ولقد درس فن الهندسة والبناء لمدة عشر سنوات وحصل على وسام لمهارته فيها ، وكان حاد الذاكرة ، دقيق الملاحظة وله نظرة خاصة فى الحياة ، تميل إلى التشاؤم المرتكز إلى فهم للواقع وتقدير أسبابه ونتائجها ، وتراه متبرماً بمظاهر المدنية لأنه يعتقد أنها لا تتركز إلى مبادئ صحيحة ، وقد ندب بمساوى العلم الحديث ،

وأشار إلى أن العلم الحديث يمكن أن يكون ضاراً أو نافعاً للناس حسب الإرادة التي تسيره ، وهو يرى الناس جميعاً عبيداً لأحكام القدر . أما موضوعات رواياته فجديدة مبتكرة وجوها إنجليزية محض ؛ وقد اختص بوصف الحياة القروية ؛ لأنه كان ينفر من حياة المدن ويرى التمس فيها مجسماً ، وإنما نراه يشبه « جان جاك روسو » في مزاجه الثائر المضطرب « وشوبنهاور » الفيلسوف في تشاؤمه .

أما « كبلنج » فقد كان محبوباً لدى القراء لا في إنجلترا وحدها بل في أوربا وبلدان الشرق ؛ ولد في الهند وعاش فيها إلى الرابعة والعشرين وكان شاعراً ناثراً ، وشعره لا يقل جودة عن نثره . وقد كان لاختباراتهِ في الشرق تأثير على أدبه . فمنها استمد مادة كثيرة لكتبه . وفي بعض رواياته دفاع عن روحيات الشرق ومثله العليا . ومع أن كبلنج هو القائل : « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » كان عمله الأكبر تقريب الشرق من الغرب . وهو يمثل يقظة وطنية في إنجلترا ، هي الشعور بوحدة الأمبراطورية وقوتها .

وكي نتم الكلام عن أدب القرن التاسع عشر لا بد لنا من ذكر بعض الكتاب الذين يعتبرون من حيث الإنتاج الأدبي من أدباء القرن العشرين . أما عدد هؤلاء فكثير ومن الصعب المفاضلة بينهم لأن لكل منهم أسلوبه ومدرسته الخاصة ، ولم يعد العصر يتحمل زعماء ومقلدين ، فقد تعددت الأساليب والمذاهب واختلطت وأصبح من العسير تعيينها والحكم عليها .

من أهم الموضوعات التي يعالجها كتاب العصر الحاضر المذاهب السياسية والاجتماعية كالاشتراكية مثلاً ، والعلاقة بين العلم والدين ، والآراء الحديثة وعلم النفس ، إلى غير ذلك مما له علاقة بتطورات العصر والنتائج التي توصل إليها أو يسعى نحوها . وقد جاء « داروين » وغيره من العلماء الباحثين فغيروا بنظرياتهم مجرى الفكر الأوربي وألزموا العقل البشرى بمواجهة مشاكل جديدة لم تخطر له من قبل . فاضطر الأدباء إلى معالجة هذه المشاكل فيما يكتبون وأصبحت الرواية بنوع خاص تحاول الإجابة عن أسئلة وقف الناس جميعهم أمامها حائرين . ونحن لا نغالى إذا قلنا إن الإنسان رغم اندفاعه وراء المادة في هذا العصر إنما يعيد تجربة بدأ فيها مراراً ؛ ألا وهي الوقوف حائراً أمام قوى الطبيعة باحثاً متسائلاً عن سبب وجوده ، وعن أحسن الطرق التي تؤدي به إلى تنظيم حياته وبنائها على أسس صالحة متينة . والكتاب الإنجليز الممتازون في هذا العصر يحاولون توجيه العقول ومساعدتها من هذه الناحية .

ولعدة أسباب عادت الرواية التمثيلية للظهور بعد أن كادت تختفي مدة أربعة قرون ؛ أى منذ عصر الملكة « أليصابات » ولعل أهم سبب لذلك هو انتشار السينما ، وإقبال الناس عليها أكثر من إقبالهم على قراءة الروايات المطولة ، كما أن عدم الميل لقراءة الكتب المطولة أدى إلى انتشار القصة القصيرة والتفنن في وضعها .

ومن زعماء الرواية التمثيلية الكتاب المعروف « جورج برنارد شو »

ولقد نجح « برنارد شو » في رواياته التمثيلية (دراما) أكثر من رواياته القصصية . وهو يعترف بتأثير « أبسن » الكاتب المسرحي النرويجي عليه . أما روايات « شو » التمثيلية وغير التمثيلية فترمى إلى غرض واحد ، هو نقد أساليب الفكر الحديث بطريقة التهكم والسخرية في أغلب الأحيان . وهو لبق سريع الخاطر متقشف في معيشته ، نباتي المأكل مبتعد عن اللذة وزخارف الحياة ؛ ومن وراء تهكمه اللاذع ومزاحه الذي لا ينقطع يضمّر إخلاصاً للبشر ورغبة صادقة لرفع مستوى الإنسان إلى درجة « سوبرمان » . . وهو كاره للمذهب الرومانتيكي الذي ساد القرن التاسع عشر ولذلك الأدب العاطفي المائع — حسب تعريفه — ولا سيما أدب الغرام والحب ؛ وتراه ينزع نزعة عقلية لا مداراة فيها ، وفي نفس الوقت لا يقبل للحياة تفسيراً آلياً محدوداً ، ويريد للعقل حرية وانطلاقاً ، وتراه يحمل على نظرية « داروين » من حيث إنها تكاد تجرد الإنسان من الإرادة الحرة وتجعله عبداً لسنن التطور . يريد للإنسان أن يكون سيد نفسه ومحيطه ، وأن يكون مسيطراً على ظروفه وعلى سنة التطور نفسها ، أى أن يكون للإنسان يد في توجيه هذا التطور إلى أبعد حد . هذه العقيدة التي شغلت سنين طويلاً عبر عنها أحسن تعبير في رواياته ، نخص بالذكر منها رواية « الإنسان والإنسان الأعلى » ، وهي محاولة تصوير الحالة التي يمكن أن يصل إليها الإنسان فيما إذا توفرت عنده الإرادة والإيمان بإمكانية

وصولها . ومهما اختلف الناس مع « برنارد شو » في الرأى فإن مقدرته الفنية وتأثيره الشديد على المسرح فى انجلترا أو خارجها لا يمكن أن ينكر ، وهو اشتراكى النزعة إلى حد بعيد ، وله آراء وكتب فى الاشتراكية تساعد قراءتها على فهم بعض ما هو غامض فى أقواله ورواياته .

ومن زعماء الرواية العصرية « ه . ج . ولز » ، وهو شبيه « بشو » من حيث أنه يبغي إصلاح المجتمع البشرى ، ويحاول أن يتصور عالماً أسمى ، وأسلوبه يشبه فى بعض النواحي أسلوب كتاب النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فهو يضحى الفن فى سبيل النقد والإصلاح ، وقد أنتج من الكتب ما لو أراد قراءته هو ثمانية لأصبح فى حاجة أن ينقطع عن الدرس والكتابة زمناً طويلاً . يؤمن بالعلم ويحاول أن ينشره فى أسلوب قصصى ، وتراه لا يترك موضوعاً إلا ويبدى رأيه فيه ، ومن كان كذلك لا بد أن يكون بحثه سطحياً فى كثير من النواحي ، ولكنه شديد الفائدة لمن لا يريد التعمق والتخصص . وقد كتب تاريخ العالم وتطوره فى مجلد صغير حاول فيه تقريب علم التاريخ للقارئ العادى . أما رواياته فأكثرها من نوع « الأيتوبيا » ، أى أنه يتصور أمكنة وظروفاً لا وجود لها ، وهى وسيلة يتخذها للنشر أفكاره ودعاياته .

٥ — تمة الفصل عن الرواية

في القرن التاسع عشر

ليس الأدب في العصر الحديث لمجرد التسلية واللهو ، وليس من شأنه أن يعنى بطبقة واحدة ، هي طبقة الموسرين الأرستوقراطيين ؛ بل أصبح يتناول حياة الطبقات عامة ، إذ أن الناس في انجلترا اليوم أصبحوا في حالة تساعدهم على التفكير في النواحي العلمية والأدبية ، وكان انتشار الثقافة بين العامة في العصر الحديث أكبر مشجع للكتاب والمؤلفين ، ثم إن اتساع الإمبراطورية وعدد الناطقين باللغة الإنجليزية ساعد على انتشار الصحف والمجلات والكتب والروايات إلى حد بعيد .

ومن يطالع عدداً من الكتب الإنجليزية الحديثة لا بد أن يلاحظ اهتمام الكتاب بمظاهر الطبيعة وتغلغلهم في درس العقل البشري ونواحيه المتعددة ، ويلاحظ شيئاً آخر لا يقل أهمية ، وهو محاولة الكتاب الاستقلال في الفكر والعمل ؛ وهذا يؤدي حتماً إلى الابتكار والتجديد . وقد يذهب الكاتب منهم في تصوراته إلى أقصى البلدان ، وينتزع من الحوادث البسيطة دروساً وعبرا وفلسفة يعرضها بأسلوب سهل أخاذ . فالصين وأحوالها وقصص ألف ليلة وليلة أصبحت تتخذ كجو مبهج لرواياتهم ؛ ولم يتركوا مهنة أو عملاً إلا ألفوا حوله كتاباً

أو كتبوا عنه مقالا ، أو انتزعوا منه رواية ، وأخذوا يهتمون بحوادث التاريخ صغيرها وكبيرها ، ويربطون الماضي بالحاضر بطريقة فنية رائعة ، ويحاول فريق من الكتاب أن يحولوا دون جعل الحياة اليومية مادية صرفة ، وأن يرفعوا مستواها إلى أبعد ما يمكن التوصل إليه .

ولقد ساعدت الطريقة العلمية على توجيه الأدباء إلى طريقة في الكتابة متوسطة بين الإيجاز والتطويل ؛ فالكتاب يتابع الفكرة بأمانة ودقة ، ولكنه يصل إلى نقطة توحى إليه بضرورة الاختصار ؛ فيتحول عنها تاركا للقارئ فرصة كي يستخلص النتيجة بأعمال فكره ورويته . وهذه الأمانة في التعبير والدقة في الوصف ، وهذا الصدق في القول أصبح يطلق عليه اسم المذهب الواقعي وهو يختلف عن المذهب الرومانتيكي الذي كان يرمى إلى استلفات النظر وإيقاظ الدهشة والاستغراب في نفوس القراء ، متجنباً تلك الحقائق التي لا تؤدي إلى هذا الغرض . والكتاب الفذ اليوم هو الذي يؤثر فينا بعرض الحقائق خالصة ، حتى ولو كانت مؤلمة وبعيدة عما ألفناه ؛ وفي نفس الوقت يعتمد إلى النقد والفحص والتحليل ؛ فلا تترك الكتاب إلا وأنت على علم بما يريد الكاتب ؛ ولك الخيار في أن توافقه أو تخالفه ؛ إذ أن من مزايا الأدب الحديث فسح المجال لحرية الفكر والقول .

ولا نستطيع في فصل موجز كهذا أن نقدم الأمثلة العديدة وأن ندعم ما قلناه عن الأدب الحديث بالأدلة والبراهين ، وحسبنا أن نذكر

عدداً من الكتاب المشهورين الذين ظهرت في كتاباتهم تلك المزايا الأدبية التي ذكرنا كلها أو بعضها ؛ وقد ذكرنا الشيخين الأديبين « برنارد شو » و « ولز » اللذين أظهرنا في كتابتهما جميع المزايا التي ذكرنا : الصراحة ، وحرية الفكر ، ومعالجة المشاكل ، والاهتمام بحياة الإنسان وتفكيره إلى أقصى حد ، ثم العناية بالمسائل العالمية والقومية والسياسية والاقتصادية . وهناك طائفة كبيرة من الكتاب الذين اتجهوا هذا الاتجاه منهم الكتاب « جالزورثي » ، « أرنولد بنيت » ، « ألدوس هكسلي » ، « لورنس » ، « جيمس جويس » « هول كين » ، فكتابات هؤلاء تختلف كل الاختلاف عن كتابات « دكنز » ، « ثاكري » ، « جورج أليوت » الذين عاشوا قبلهم بنحو نصف قرن ، ومع أن كثيرين من الأدباء في القديم حاولوا الإصلاح إلا أنهم يختلفون عن أدباء العصر الحديث من حيث النزعة والأسلوب ، ومن حيث الموضوعات التي عالجوها . فالأديب القديم كان يهتم بمبادئ وأمس أدبية وأخلاقية لم تعد لها حاجة في نظر الكتاب الحديثين .

الباب الثالث

الأدب الأميركي

— ١ —

في أوائل القرن السابع عشر بدأ استيطان الإنجليز أميركا ، وفي بحر
المائة والخمسين سنة التي تلت ذلك ، لم يكن الأدب الأميركي في مادته
وأسلوبه سوى فرع من فروع الأدب الإنجليزي ، وكيف يكون غير
ذلك وهو أدب قوم أرغمتهم الظروف على مغادرة بلادهم ؛ وأوجدتهم
في محيط جديد فيه من العقبات والصعوبات ما قد شغلهم باديء ذي
بدء عن الابتكار في الأدب ، فغدوا على اتصال وثيق بحياتهم الفكرية
الماضية ، على أن هذه الحياة الاتكالية لم تدم طويلا ، فسرعان ما بدأ
الكتاب والمفكرون يشقون لهم طريقاً جديدة في الأدب ، ويتخذون
لهم أسلوباً جديداً في الكتابة ، فكان من ذلك أن نشأ في القرنين
الماضيين أدب أميركي ذو طابع خاص وشخصية مستقلة .

لقد كان الأدب الأميركي قبل الربع الأخير من القرن الثامن عشر
أدباً جافاً بعيداً عن الحياة ومسررتها ، ويعرف بالأدب « البيوريتاني »
والكلمة تعني التقشف والتدقيق في أمور الدين والسلوك . جاء هذا الأدب
مناوئاً لعصر الملكة أليصابات الملى بالحياة ؛ إذ أصبح الناس ينظرون
إلى الحياة نظرة جد وتكشف ، مؤمنين بأن كل ما يجعل الحياة طروباً

مرحة إن هو إلا من عمل الشيطان . وقد كانت نعمة الأدب دينية ،
وكتب ذلك الزمن ملامى بالمناقشات اللاهوتية والأبحاث الطائفية ،
وهو عصر كثير الشبه بالعصر الإسلامي الذي نشأت فيه الفرق
الإسلامية المختلفة ، وكثرت فيه الاختلافات والمناقشات الدينية .

أما الربع الأخير من القرن الثامن عشر فكان الأدب فيه خصباً
إلى حد ما ولا سيما في مدينة «نيويورك» . والسبب هو أن «نيويورك»
كانت ولا تزال مدينة تجارية غنية ، وللمال والرخاء — ولا شك —
أثر كبير في نشر الثقافة والعلوم . على أن هذا الأدب النيويوركي لم يكن
من النوع الذي يعكس صورة الحياة عامة ، والطبقات كافة ؛ بل هو
أدب قوم منعمين اتخذوا الأدب ملهة لهم وتسلية ، ولهذا النوع من
الأدب في كل عصر ميزة خاصة ، وقيمة تاريخية هامة ؛ أما فائده
الأدبية فتكاد لا تذكر . فمثلاً « وشنطون إرفنج » كان تاجراً معروفاً
في نيويورك ، وقد شغل مناصب هامة في إنجلترا وأسبانيا ؛ فكان أدبه
مجرد محاولات للتعبير عن اختبارات عديدة في الاجتماع والسياسة ؛
إلا أنه أدب جاف تنقصه الخبرة في نواحي الحياة المتعددة ، ويكاد
يكون خالياً من الفلسفة والتفكير الحر الطليق ، وهكذا فإن كتاب
ذلك العصر لم يكونوا أصحاب فكرة أو مذهب في الأدب ؛ مع العلم
أنهم كتبوا كثيراً وحاولوا كثيراً .

أما في أوائل القرن التاسع عشر فكانت الجرائد والمجلات أهم

وسيلة للتعبير عن الفكر ، ومن أهم صحف ذلك الوقت صحيفة «تكر بوكر»
 فهي ملأى بالشعر والمقالات والقصص ؛ وكان في مقدمة الكتاب
 «إدجار آلن بو» الذى اتخذ القصة القصيرة وسيلة لأفكاره ، على
 أنه لم يهمل الشعر ، وقصائده القليلة لا تخلو من الفن والمعاني الجميلة ؛
 وقد اشتهر «بو» فى إنجلترا وفرنسا ، وهو لا يزال بعد من واضعى
 أسس القصة فى العصر الحديث .

على أن الأدب لم يكن ليبقى محصوراً فى نيويورك ، إذ ما لبث أن
 ازدهر وارتقى فى أواسط القرن التاسع عشر فى إنجلترا الجديدة
 (نيو إنجلند) ؛ أما زعماء هذا الأدب فهم «إيمرسون» و «ثورو»
 و «هوثرن» ، وقد اشتهر كثيرون غيرهم كل فى ناحيته الخاصة ،
 فمثلاً «لونجفلو» كان ولا يزال من أحب الشعراء لدى الأميركيين
 ولا سيما البسطاء منهم ، ثم «برسكوت» و «موتلى» كانا من
 كبار المؤرخين .

أما أسباب هذه النهضة فى نيو إنجلند فتشبه إلى حد ما الأسباب
 التى دعت إلى ازدهار الأدب فى عصر أليصابات ، فقد كانت نيو إنجلند
 فى ذلك الوقت — أى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر —
 تتمتع بقسط وافر من الطمأنينة وسعة العيش ، وكان الناس فى حالة
 تساعد على التفكير والنهوض من الناحية العلمية والدينية ؛ ثم إن
 كثرة عدة السكان وانتشار الثقافة بينهم كان مما يشجع الكتاب والمؤلفين

فقد كان عدد سكان الولايات المتحدة في ذلك الوقت واحداً وثلاثين مليوناً مع أن مجموع عدد سكان بريطانيا وإيرلندا لم يكن يتجاوز الواحد والعشرين مليوناً .

أما الفلسفة التي عاجلها الأدب في ذلك العصر فكانت فلسفة ما وراء العقل والوجود . ومن العبث فهم ما كتبه « إيمرسون » وزملاؤه دون أن نكون صورة واضحة للفلسفة التي حاولوا التعبير عنها في كل ما كتبوا .

كان يعتقد هؤلاء الكتاب المفكرون أن الإنسان يمكنه إذا أراد أن يتجاوز عالم الحس والعقل ، وأن ينفذ ببصيرته إلى عالم النفس والروح ويمدد ذاته إلى أن لا يبقى في الوجود ما هو خارج عنها ، فيغدو هو وكل شيء في الحياة واحداً ؛ وهذه الرفقة أو الصداقة أو قل الاشتراك مع الحياة تؤدي حتماً إلى تغيير وجهة النظر في سلوك الإنسان مع الإنسان ، إذ عندها تزول الأنانية الناشئة عن حب الجمع والكسب ، ويزول الحقد والكراهة والعجب من القلوب ؛ ويتجه العقل نحو كل ما هو نافع وجميل في الحياة .

وقد كان لهذه الفلسفة مظهران في حياة أصحاب هذا المذهب وكتبهم : —

أولاً — حب الطبيعة ثانياً — الميل الشديد للاستقلال

في الفكر والعمل . ولقد تطرف « ثورو » بأن اعتزل الناس مدة سنتين ؛

وقطن الغابة كي يبرهن عملياً على أن في إمكان الإنسان أن يحيا حياة مثلى بعيدة عن الناس وسخاقتهم ، ولقد أوضح السبب في اعتزاله قال : « لقد ذهبت إلى الغابات لأني أردت أن أعيش عن قصد وتصميم مواجهاً حقائق الحياة البسيطة القليلة لعلّي أتعلم منها شيئاً ، حتى إذا ما انتهت حياتي في هذه الديار أشعر أنني عشت على الأقل مدة من الزمن » . ولقد برهن عملياً على أن في إمكان الإنسان أن يعيش على أبسط المأكولات ومع ذلك يبقى محتفظاً بصحته وكيانه ، وأكد في كتابه بأن لا حاجة إلى كل هذا النزاع والتكالب على ضروريات المعيشة واكتساب الرزق .

أما الشعراء والكتاب في هذا العصر الذين لم يعنوا بالفلسفة العميقة فكانوا محبين لدى الجمهور أكثر من « إيمرسون » و « ثورو » وغيرها من الفلاسفة المفكرين ، وهذا ليس بغريب ، لأن آراءهم معقدة غامضة ، وما لم يكن القارئ ميالاً إلى هذه الناحية من التفكير فإنه يعجز عن متابعتهم وفهم أغراضهم ، ولقد أصاب « إيمرسون » حين قال : « لا يفهم الشاعر إلا الشاعر ، ولا يدرك قلب النبي إلا النبي » ، وأكبر مثال عندنا جبران خليل جبران الذي سيبقى بعض ما كتبه في الإنجليزية على الأخص غامضاً على أكثرية قرائه ؛ فماذا يفهم القارئ العادي مثلاً من قول جبران : — « أولادكم ليسوا أولادكم ، بل هم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها » ؛ أو قول « إيمرسون » مثلاً « إن

أبسط إنسان إذا ما عبد الله بحق ونزاهة يصبح الله . فهذا نوع من التصوف عميق ، لا يستطيع إدراكه إلا القليلون من الناس . وخلاصة القول أن أحسن ما كتب في هذا العصر في نيو إنجلند لم يكن أدباً عامياً يقصد منه تعليم البسطاء من الناس أو تسليتهم ؛ بل أدباً روحياً عالياً يختلف عن غيره بأنه لم يكن وليد الظروف والأحوال ، بل نتيجة لمحاولة هؤلاء الكتاب التحرر من الواقع والانفلات من المحيط ، والتمسك بالمثل العليا إلى أقصى حد في حياتهم اليومية .

ومن الكتاب الذين توخوا البساطة في الشعر من ناحية المادة والأسلوب ، الشاعر المشهور «لونجفلو» ؛ الذي رغب الناس في الشعر البسيط وحببهم في النواحي العادية في الحياة ؛ فقد نظم في أسهل الموضوعات وأبسطها ؛ وكان ينشد القصص والحكايات كقصته «إيفانجيلين» وكلها سرد لسلسلة من الحوادث والمفاجآت المحزنة التي وقعت للفتاة البطلة وهي تبحث عن حبيبها ؛ وكذلك قصة «هياواثا» فهي منتزعة من حياة هنود الولايات المتحدة ، وهي ملآى بالحوادث والأساطير التي من شأنها أن تساعد على فهم حياة القوم ؛ وهذه القصة لا تزال تمثل على المسارح وتحكى للصغار إلى اليوم .

أما المؤرخون في ذلك العصر فكانوا كثيرين ؛ ومع أن الأدب الخالص هو غير التاريخ ، إلا أن كتب هؤلاء وضعت في أسلوب دبی رائع كأن الغرض منها كان أدبياً أكثر مما هو تاريخي ؛ ولم

يقتصر هؤلاء المؤرخون على بلادهم فحسب ، بل بحثوا في معضلات الدول الأخرى في أوربا ، فمثلا الكاتب « موتلى » حاول أن يصور للقراء جهاد الهولنديين في المحافظة على الحرية والدين ، و « برسكوت » تحدث عن أسبانيا وعصرها الذهبي ، « و باركان » صور التنازع القائم بين الإنجليز والفرنسيين في شمال أميركا .

وهناك من الكتاب من كرسوا قصائدهم ومقالاتهم العديدة لمقاومة الرق ، ومنهم من اشتهروا بالكتابة الجدلية الفكاهية « كهولس » الذى ألف ثلاثة كتب لا تزال تقرأ بشغف في أميركا إلى الآن ، وهى : أولا — « الأوتوقراطى على مائدة الإفطار » ، ثانياً « البروفسور على مائدة الإفطار » ثالثاً « الشاعر على مائدة الإفطار » وهذه الكتب الثلاثة هى مجموعة أحاديث غير رسمية تدور بين عدد من الأشخاص في أحد المنازل في مدينة بوستن ، يتولاها الأوتوقراطى في الكتاب الأول ، والبروفسور في الكتاب الثانى ، والشاعر في الكتاب الثالث ؛ وهى مليئة بالفكاهة والانتقاد .

تحدثت بإسهاب عن أدب « نيو إنجلند » لأنه امتاز من أدب أية مقاطعة أخرى من مقاطعات أميركا المتعددة باتجاهه الفلسفى ، ودعوته إلى الحرية الفكرية ، وحضه على التمسك بالمثل العليا مهما كانت الأحوال والظروف ؛ ولقد كان هدف هؤلاء الكتاب المؤمنين بالحياة

أن يحولوا دون جعل الحياة اليومية مادية صرفة ، وأن يرفعوا مستواها إلى أبعد ما يمكن التوصل إليه .

— ب —

يتفق الأدب الإنجليزى والأدب الأمريكى فى القرن التاسع عشر من حيث النزعة والأسلوب ؛ فقد ساد المذهب الرومانتيكى أوربا وأميركا على السواء ؛ يوم كان الكتّاب يبحث فى زوايا الحياة عله يجد حادثة غريبة أو خلقاً شاذاً بعيداً عن المألوف ، وكان الغرض من ذلك لفت النظر وإيقاظ الدهشة والاستغراب فى النفوس ، على أن تغيير نظم المعيشة — ولهذا التغيير أسباب عديدة أهمها الثورة الصناعية — استلزم تطوراً جريئاً متطرفاً فى الأدب فأصبح الكتّاب يسأل : — هل هذه الحادثة أو هذا الخلق الذى أصفه مطابق للواقع والحياة ؟ ومن ثم نشأ الأدب الواقعى ، وكان من أهم دعاة هذا المذهب فى أميركا « وليم هولس » « وهنرى جيمس » . وكلاهما عاش فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، فقد دعا « هولس » إلى الديموقراطية فى الكتابة والأمانة فى سرد الحوادث وطريقة التعبير ، وهو فى هذا المعنى يقول : « لقد أدى الأسلوب الرومانتيكى خدمة جلى فى عصره ، إذ قد فسخ المجال الواسع للخيال ، أما الآن فواجبنا أن ندرك أن الأمانة فى التعبير والدقة فى الوصف ، والصدق فى القول هى من مقتضيات الخيال

الصحيح ؛ وما الأسلوب الواقعي سوى نشد الحقائق خالصة لا أكثر ولا أقل ؛ حتى ولو كانت مؤلمة وبعيدة عما قد ألفناه .

أما « هنرى جيمس » فيقول : « لا يقل واجب الروائي عن واجب المؤرخ فى البحث عن الحقيقة ، بل إنى لأرى مبرراً لوجود الرواية إن هى لم تساعد على فهم الحياة ولم تصلح العقائد الفاسدة التى فى رموس الناس » .

ولم يقتصر هذا الأسلوب الواقعي على النثر بل تجاوزه إلى الشعر أيضاً ؛ فهناك الشاعر المشهور « وولت وتمان » الذى لقب بشاعر الديمقراطية فى أميركا ، تراه يحاول أن يصور الواقع بدون تصنع أو مبالغة ، وهو يخاطب قراءه قائلاً : « لا تنتظروا منى أن أجعل الزخرفة والتنميق والتزيق فى الشعر تقف حاجزاً بينى وبينكم ، ليزخرف غيرى من الشعراء ما شاءوا ؛ أما أنا فأسأؤفكم بجانبي وأجعلكم تنظرون فى المرأة نفسها التى أنظر فيها » ، ولقد شد « وتمان » عن قواعد الشعر وقوافيه خوفاً من أن تعترض طريقه الطبيعى فى إظهار الحقائق .

على أنى لا أريد أن يفهم القارئ الكريم أن هذه الطريقة الواقعية أدت حتماً إلى جفاف الأسلوب وقصر الباع فى التأليف والكتابة ؛ إذ الحقيقة هى أن الكتاب بدءوا يتفننون أكثر كثيراً من قبل فى وصف مشاهد الحياة المختلفة كما تبدو لهم كنقاد فاحصين ؛ وأخذوا يتبارون فى ابتداع القصص ، والروايات التحليلية ، ويتسابقون إلى إرضاء الصحفيين والناشرين من جهة واستمالة الجمهور ومراعاة

الأذواق المختلفة من جهة أخرى ؛ ثم إن هذا الإنتاج السريع في حقل الأدب لم يغمض البصائر عن مساوى الحياة الأميركية ؛ فقد أقبل عدد كبير من الكتاب على نقدها وإصلاح ما قد فسد منها ، ولجأ بعضهم إلى السخرية والتهكم وبعضهم إلى المزاح والفكاهة . وإذ نذكر الكتاب الهزليين الذين لعبوا دوراً هاماً في حقل الأدب لا بد لنا من أن نتحدث قليلاً عن « مارك توين » واسمه الأصلي « صمويل كليمانس » الذى توفى سنة ١٩١٠ . ولد « مارك توين » في مقاطعة « ميسورى » شرقى نهر المسيسبي سنة ١٨٣٥ ؛ وقد قال عن مسقط رأسه مازحاً : « كان عدد سكان قريتي مائة شخص ، فعندما ولدت زدت المائة واحداً » ؛ وفي سن الثانية عشرة ترك المدرسة إذ مات أبوه ؛ فاشتغل في الطباعة ، وظل يتنقل من عمل إلى عمل ومن مهنة إلى مهنة طول حياته ، وهذا مما ساعده على اكتساب خبرة واسعة في نواحي الحياة المتعددة . وفضلاً عن ذلك فقد سافر سنة ١٨٧٦ إلى أوروبا ومصر وفلسطين ، وقد وصف رحلته هذه في كتاب تلقاه الأميركيون وغير الأميركيين بشغف عظيم ، رغم أن صراحته لم ترض عدداً كبيراً من الناس . ومنذ ذلك الحين أصبح « مارك توين » معروفاً لا في أميركا فحسب بل في أوربا وغيرها من البلدان ، ولعل أحسن ما كتبه هو وصف الحياة في وادى المسيسبي العظيم في أواسط القرن التاسع عشر . ومع أن « مارك توين » معروف ككاتب هزلى ، إلا أنه في

الحقيقة أكثر من ذلك . فهو مؤرخ وفيلسوف ، وما المزاح سوى الملح الذى سيحفظ له حب الناس وإعجابهم به ، إذ أن الكاتب الذى لا يقدم للقراء شيئاً سوى الفكاهة لا يلبث أن يتضاءل ذكره ويطفأ نوره بعد زمن قصير . وخلاصة فلسفة « مارك توين » الجدية نجدها في كتاب صغير ألفه وامتنع عن نشره مدة سبع سنوات خشية أن يسيء الناس فهمه فتصاب سمعته بسوء ، أما موضوع الكتاب فهو محاولة المؤلف أن يجيب عن هذا السؤال : — ما هو الإنسان ؟ . والكتاب مجموعة أحاديث وأبحاث بين رجل طاعن في السن وشاب في مقتبل العمر ؛ ويستخلص منها أن « مارك توين » كان يعتقد :

(١) أن الإنسان مجرد آلة تحركها المؤثرات الخارجية .

(٢) أن سلوك الإنسان مهما كان نوعه ما هو إلا إرضاء لنفسه ورغباته

(٣) لكل فرد في الحياة مزاج خاص وهذا المزاج هو المسيطر على أعماله كلها ، ومن العبث أن تحاول تغييره . (٤) إن الإنسان مسير لا مخير وعامل الوراثة هو كل شيء في حياة البشر .

تحدثت بشيء من الإسهاب عن « مارك توين » ، لأنه ما زال يعد في نظر الأدباء أبرز كتاب أواخر القرن التاسع عشر ، فقد اجتمعت فيه أكثر مزايا ذلك العصر الأدبية ؛ وهى الأسلوب الواقعي والتفكير العملي الفلسفي ، ثم الكياسة والظرف والفكاهة التي كان من شأنها أن تلطف من حدة الواقع وخشونته .

لم تكن مادة الأدب الأميركي مبتكرة فحسب، بل كانت ذات رسالة معينة إلى الشعب الأميركي ؛ وهذه الرسالة رغم تعدد نواحيها واختلاف أساليب التعبير عنها كان الغرض الأساسي منها رفع مستوى تفكير الأفراد عامة ، فهو ليس أدب القصور أو الطبقة المنعمة من الشعب ؛ بل هو أدب ديموقراطي بكل ما فى الكلمة من معنى . ولقد جمع هذا الأدب بين المذهبين المتنازعين أبداً : العمل والتصورى ، فقد أشبع الكتاب هاتين الوجهتين بحثاً حتى أصبح من السهل على الشعب كمجموع أن يميز بينهما ويدرك نتائجهما ؛ ثم إنهم عززوا شخصية الفرد وأشعروه بالمسؤولية تجاه نفسه وبلاده والعالم ، فهو أدب قوى عالمي ، يوجب تقدم المجموع عن طريق حرية الفرد وإصلاح شأنه ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر « وولت ویتان » : « إن فلسفة الوجود متجهة بكليتها نحو الفرد » ؛ وفى أغنية تخاطب الأم ابنها : « يا بني أنت مع العالم واحد ، ومع أن حبي لك يفوق حبي لأى شيء آخر لا بد لى من أن أخفف آلام العالم كيما أستطيع أن أخفف دموع العالم » . ولقد كان لهذه النظرة الاجتماعية الإنسانية ، التى ربطت مصير الفرد بالمجموع ربطاً محكمًا أثر كبير فى التربية والقضاء والتجارة وكثير من مناحى الحياة الأميركية . ثم إن هذا الأدب قد شجع الناس على الدرس والشك والانتقاد وحب كل ما هو جديد فى الحياة .

وأختم هذا الفصل بالإجابة عن سؤال قد يخطر على بال عدد من

المغرمين بالمطالعة ؛ وهو ماذا نقرأ من الكتب الأميركية ؟ . فأقول :
« إن هذا إنما يتوقف على ميل القارئ واستعداده ، فإن كنت ميالا
إلى المذهب التصوري فأقرأ مقالات « إيمرسون » ، « ثورو »
« وهو ثورن » ، وإن كنت ترغب في التسلية فأقرأ « أو . هنرى »
« وشيئا من كتابات « هولس » ، « وهنرى جيمس لويل » . وإن
أردت الاطلاع على مؤلفات المعاصرين فأقرأ « سنكلر » ، « أندرسون »
« وولبورستيل » ، « يوجين أونيل » ولا تنس « مارك توين »
مهما كان ذوقك ونزعتك . وهنالك عدد كبير من الجرائد والمجلات
في أى موضوع شئت .

يقول الكاتب « لوج » : « إن أهم مشكلة تعترض الأدب
الأميركى في الوقت الحاضر هي كثرته ، ففي كل سنة ينشر فى أميركا
ما لا يقل عن خمسة أو ستة آلاف كتاب جديد ، وهو أكثر بكثير
من عدد الكتب الأدبية التى كتبت فى بريطانيا فى عدة سنين ؛
ولو استطعنا أن نقرأ كتابين أو ثلاثة كل أسبوع لاحتجنا إلى عشرين
سنة كي نقرأ ما تصدره المطابع فى سنة ، فيكون قد صدر فى خلال
هذه المدة على هذا المعدل ما لا يقل عن مائة ألف كتاب لم نقرأ بعد ،
فالجمال للاختيار واسع ، وما علينا إلا أن نبحث عما يوافق أذواقنا
وأمرجتنا الخاصة » .

مصادر البحث

1. A History of English literature by Arthur Compton Ricket London 1938 (Thomas Nelson & Sons).
2. Impressions of English Literature; edited by W. Turner London 1945.
3. History of English Literature by Long.
4. A Short History of English Literature by George Saintsbury, Macmillan, London 1937.
5. Nineteenth Century Literature By George Saintsbury Macmillan, London 1916.
6. The Concise Cambridge History of English Literature by George Sampson — Cambridge.
7. English Literature in the 18th Century by Thomas Sergeant Percy, New-York 1883.
8. A History of English Literature by Emile Legonis and Louis Cazamian from 650—1940, translated from the French; Revised Edition 1940.
9. A Short History of English Literature by Edmund Gosse, London 1897.
10. Poets and Prophets by André Maurois published by Cassel 1936.
11. The Cambridge History of English Literature From Vol. VIII to XIV, Cambridge University Press 1907.
12. سلسلة اقرأ عدد ١٥ « بايرون » للسيدة أمينة السعيد
13. اعترافات آكل أفيون تعريب محمود مراد

محتويات الكتاب

الباب الأول

الأدب الإنجليزي في القرن الثامن عشر

صفحة	
٩	نظرة عامة
٢٠	مزايا النثر
٢٧	جوزيف أديسون ، وريتشارد ستيل
٣٤	جوناثان سوفت
٣٩	صمويل جونسون
٤٥	أولفر جولد سميث
٤٩	أدموند بيرك ، وجيمون
٥٤	نشوء الرواية
٦٠	هنري فيلدنج
٦٢	سموليت ، وستين
٦٨	مميزات الشعر في القرن الثامن عشر
٧٢	الكساندر بوب
٧٩	توماس جراي
٨٧	وليم كوبر
٩٤	روبرت برنز
١٠٢	وليم بليك

الباب الثاني

الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر

الشعر

١١١		نظرة عامة
١١٨		وليم وردزورث ، وكولردج ، وسوذي
١٢٤		شلي ، كيتس ، بيرون
١٣٠		تنيسون ، وبروننج

النثر

١٣٨		هانت ، هازات ، شارلز لامب ، دي كونسى
١٤٥		ماكولى ، كارليل ، رسكن ، ماثيو أرنولد
١٥٢		الرواية : ديكنز ، تاكرى ، جورج أليوت
١٥٩		جورج مردث ، توماس هاردى ، رديارد كبلنج
١٦٥		تتمة الفصل عن الرواية في القرن التاسع عشر

الباب الثالث

١٦٨		الأدب الأميركي
١٨١		مصادر البحث



DATE DUE

J. Lib.

14 DEC 1983

J. Lib.

19 DEC 1983



سعيد، جميل
اتجاهات الادب الانكليزي في القرنين 1
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030227

820.9
Sa.121A

